روسلياكوف وتاشلييف

التجربة التاريخية لبناء الاشتراكية في جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية

روسلياكوف، تاشلييف

■

التجربة التاريخية لبناء الاشتراكية في جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية

■



دار التقدم
موسكو

مقدمة

كانت آسيا الوسطى مستعمرة لروسيا القيصرية . وقبل ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى عام ١٩١٧ كان تطور شعوب آسيا الوسطى في مستوى ما قبل الرأسمالية . وكان اقتصادها متأخرا وبدائيا ، ومستوى حياتها شبه بائس .

بعد ثورة اكتوبر بنت شعوب آسيا الوسطى ، سوية مع كافة شعوب البلاد السوفييتية ، وتحت قيادة الحزب الشيوعي اللينيني ، بنت المجتمع الاشتراكي في فترة تاريخية قصيرة . وضمنت الاشتراكية نهوضا سريعا لاقتصاد وثقافة شعوب آسيا الوسطى، التي لم تقتصر على اللحاق بالكثير من البلدان الرأسمالية المتطورة، بل سبقتها ايضا.

ان شعوب آسيا الوسطى ، شأنها شأن بعض الشعوب الاخرى في الاتحاد السوفييتي ، قامت لاول مرة في العالم بتجربة الانتقال من علاقات ما قبل الرأسمالية الى الاشتراكية ، مجتنبة الرأسمالية . وهذه التجربة بوسعها ان تكون ذات اهمية معينة بالنسبة للشعوب المتحررة من نير الحكم الاستعماري والتي سلكت طريق التطور الاقتصادي والسياسي المستقل .

وفي هذا الكراس يدور الحديث باختصار عن الطريقة التي بنت فيها شعوب آسيا الوسطى الاشتراكية ، والصعوبات التي تأتى عليها تذليلها في هذا المجال ، وعن النتائج التي احرزتها بانجازها بناء الاشتراكية .

١. كيف كانت آسيا الوسطى قبل الثورة

بغية تقدير النجاحات الهائلة التي احرزتها شعوب آسيا الوسطى في طريق التطور الاشتراكي ، من الضروري تصور كيف كانت تعيش في الماضي ، قبل الثورة.

ان آسيا الوسطى منطقة غنية . فمن سلاسل الجبال الهائلة المكسوة بالثلج والجليد تنساب الانهر العديدة التي تروي الواحات الكثيفة السكان في سفوح الجبال . وعلى الرغم من ان الامطار لا تهطل هنا الا نادرا ، فان الحقول تعطي المحاصيل الوافرة شريطة ان يتوفر الري الاصطناعي . وتربية المواشي متطورة في الجبال والسهوب الشاسعة حيث الكثير من المراعي الوافرة.

ولكن شعوب هذه الربوع — وهي شعوب الاوزبيكيين والطاجيكيين والتركمانيين والقرغيزيين

والقراقالباقيين * — كانت تعيش عيشة بائسة وتعاني من الظلم القاسي .

وفي العهد القديم والقرون الوسطى كانت تقوم هنا دول كبيرة . وكانت تتخلل آسيا الوسطى الطرق التجارية العالمية الهامة للغاية وكان يعيش في مدنها الغنية العديدة فطاحل العلم والشعراء والمهندسون المعماريون الرائعون . ولكن الحزوب الاقطاعية المدمرة (لا سيما عدوان قطعان جنكيز خان** في القرن الثالث عشر) قوضت اقتصاد وثقافة هذه المنطقة تقويضا شديدا .

* كان الاوزبيكيون (وعددهم في بداية القرن العشرين زهاء اربعة ملايين) والطاجيكيون (حوالي المليون) مزارعين حضر، وكان يعيش قسم منهم في المدن ويتعاطى الحرف والتجارة. وكان اقتصاد التركمانيين (٨٠٠ الف) والقراقالباقيين (حوالي ١٥٠ الفا) اقتصادا مختلطا — القسم الاكبر منهم كان يتعاطى الزراعة وكان الباقون يعيشون متنقلين مع قطعان الماشية. وكان القرغيزيون (٨٠٠ الف) بأسرهم تقريبا مربي ماشية رحل. وكان التركمانيون والقيرغيزيون والقراقالباقيون ينقسمون الى عشائر وقبائل يترأسها الشيوخ.

** جنكيز خان هو زعيم قبائل المنغول الرحل وقائدها في غزواتها الى الصين وآسيا الوسطى وايران واوروبا الشرقية. وقد رافق حملات جنكيز خان دمار المدن وافقار بلدان بكاملها والابادة الجماهيرية واستعباد السكان. وقد نعته كتاب القرون الوسطى الشرقيون بانه «جيهان ـ غوش» («السفاح العالمي»).

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، اصبحت آسيا الوسطى مستعمرة لروسيا القيصرية ، وكانت مقسمة في العهد القيصري الى ثلاثة اقسام : اقليم تركستان وامارة بخارى وامارة خيوه . وكانت تركستان تحكم من قبل ادارة عسكرية روسية. والادارة الدنيا ، الريفية فقط ، كان يعهد بها الى الزعماء والاغنياء المحليين . وكانت اكثرية القضاة والموظفين الروس من اناس لا يعرفون العادات والتقاليد المحلية ولا اللغات المحلية ، وبمختلف السبل كانوا يحتقرون ويهينون السكان المحليين ويعاملونهم بازدراء . واخذت الحكومة القيصرية تنتزع الارض من سكانها الاصليين وتسكّن فيها فلاحين من روسيا المركزية ، ساعية الى انشاء قاعدة مضمونة لها بشخص المستوطنين الروس المسلحين . وبقيت امارة بخارى وامارة خيوه شكليا تحت حكم حكامهما الاقطاعيين الذين تحولوا من حكام مستقلين الى ولاة مطيعين للقيصر الروسي .

اخذت العلاقات الرأسمالية تتغلغل في آسيا الوسطى بعد انضمامها الى روسيا . ولكن هذا لم يجلب للشعوب

المحلية التقدم والازدهار . فقد اصبحت آسيا الوسطى ملحقا زراعيا لروسيا المركزية يمدها بالخامات . وكان الرأسماليون الروس يسلبون المواد الخام من آسيا الوسطى بابخس الاسعار، شاحنين لها بالمقابل البضائع الصناعية الباهظة الثمن . ان الرأسمالية تتصف بمثل هذا النظام من تقسيم العمل ، فهو يؤدي الى استغلال وخراب شعوب المستعمرات .

واخذ يتطور في اقتصاد آسيا الوسطى الزراعي الانتاج البضاعي لتلك الانواع من الخامات ، التي كانت تحتاجها الصناعة في روسيا القيصرية : القطن ، الحرير ، الصوف . وجرت هذه العملية بصورة اسرع في اقليم تركستان.

كان القطن يتسم بالاهمية الاولى . فقد كان قطن آسيا الوسطى يضمن قرابة ٥٠ ٪ من صناعة الانسجة القطنية في روسيا . وكان وكلاء شركات النسيج الروسية يعقدون سنويا ، عن طريق وساطة المرابين المحليين ، وفي نهاية فصل الشتاء عندما يكون الجوع قد عض فقراء الفلاحين ، صفقات مجحفة - يستدين الفلاح

بموجبها القليل من النقود والبذار ، وعليه بالمقابل ان يسلم في الخريف كل القطن باسعار منخفضة وان يسدد الدين مع الفائدة . نتيجة لذلك لم يكن بوسع الفلاحين حتى في الموسم الجيد تسيير امورهم الى الصيف المقبل فيضطرون ثانية الى اغراق انفسهم بالدين ؛ وفي الموسم الرديء كانوا يفلسون كليا ويتوجب عليهم بيع ممتلكاتهم ومواشي العمل ، ورهن الارض او بيعها ، ويتحولون الى اجراء زراعيين لا ارض لهم . لقد جلبت الرأسمالية البؤس والخراب الى فلاحي تركستان . «مع القطن الابيض جاءت المصيبة السوداء » — هكذا كان الفلاحون يتحدثون بمرارة .

من البديهي انه في مثل هذه الحالة لم يكن بوسع الاغلبية الساحقة من الفلاحين شراء الآلات الزراعية . وكانت الزراعة تمارس بالاساليب القديمة الهرمة بواسطة اكثر الادوات بدائية — المحراث الخشبي والمعزقة. وكانت الارض المروية قليلة ، اما المردود فكان منخفضا جدا بسبب الاساليب المتخلفة في ممارسة الاقتصاد . وكانت تربية المواشي متخلفة على الاخص.

فقد كان الكلأ المصدر الوحيد لغذاء المواشي على مدار السنة. وفي فصول الشتاء الباردة كان يهلك من المواشي مئات الالوف ، بل الملايين .

تحت تأثير تطور العلاقات البضاعية النقدية بين سكان تركستان الاصليين اشتد التباين الاقتصادي بينهم . وكان الفلاحون الفقراء يؤلفون قرابة ٦٠ ٪ من سكان الريف العديدي الملايين . وحتى ٥٠ ٪ من الاستثمارات لم تكن تملك مواشي العمل ، وزهاء ٢٥ ٪ لم تكن تملك العتاد الزراعي . وكان شاقا بصورة خاصة وضع مربي المواشي الرحل . فان ٩٠ ٪ من الاستثمارات المتنقلة لم تكن تملك اكثر من ٢٠ــ ٣٠ رأسا من الغنم والماعز ، الامر الذي كان، في ظروف الاستثمارة القائمة على تربية المواشي بوجه الحصر، يحكم على اصحابها بان يعيشوا شبه جياع مدى الحياة . وفي وجه الفلاحين الفقراء كان يقف الاقطاعيون الذين يملكون مئات الهكتارات من الارض وعشرات الالوف من رؤوس الماشية . ومن وسط الفلاحين انفسهم نمت البرجوازية الريفية ــ البايات الذين كانوا يشترون الارض

ويستغلون الاجراء الزراعيين والمحاصصين بلا رحمة .
وكان يحدث ان يضطر الفلاح الفقير ، الذي استأجر قطعة ارض من الباي ، الى اعطائه نصف المحصول واحيانا ثلاثة ارباعه. وفي وادي فرغانة ، اخصب جزء في آسيا الوسطى ، كانت ١٦ الفا من استثمارات البايات تملك ٣٤٣ الف هكتار من الارض ، اما ٢٣٣ الفا من استثمارات الفلاحين الكادحين فلم تكن تملك الا ١٠٨ آلاف هكتار ، اي اقل من نصف هكتار للاستثمارة الواحدة . وكان البايات الاكثر ثراء يبنون مصانع لحلج القطن ، ومطاحن بخارية؛ وفي الوقت نفسه كان يزداد اكثر فاكثر عدد الناس الذين لا ارض لهم والمضطرين لأن يعملوا اجراء زراعيين او ان يذهبوا الى المدن للبحث عن العمل .

ولكن لم يكن من السهل ايجاد العمل في المدينة . فالصناعة في آسيا الوسطى كانت تتطور تطورا ضعيفا جدا . فعدد المعامل والمشاغل التي كان يعمل في كل منها اكثر من ١٠٠ عامل لم يكن يزيد على عشرة في المنطقة كلها . وكانت المؤسسات الصغيرة شبه الحرفية

متخصصة في الاساس بالتكييف الاولي للخامات الزراعية . وكانت مصانع حلج القطن ومعاصر الزيت التي كانت تعمل ثلاثة – اربعة اشهر في السنة ، تعطي اكثر من ٩٠ ٪ من مجموع المنتوج الصناعي في آسيا الوسطى . وكانت نسبة البروليتاريا الصناعية لا تزيد على ٠,٤ ٪ من سكان آسيا الوسطى ، اي زهاء ٣٠ الف نسمة . وكان العمال ذوو الكفاءات من الروس فقط تقريبا . وكان العمال المحليون يعملون في اسوأ الظروف ويحصلون على اجور ادنى . وكانت الادارة الاستعمارية تسعى بكل الوسائل لتضع العمال الروس في وجه العمال المحليين ولتسمم العمال الروس بسم الشوفينية .

وبصورة ابطأ تطور الاقتصاد في خيوه وبخارى . فاشكال الادارة التي كانت قائمة هنا ، وهي اشكال القرون الوسطى المتخلفة ، كانت تعيق تطور الصناعة والتجارة . وكانت الارض تخص بكاملها تقريبا الخان والامير والاقطاعيين الكبار ، وكانت تفرض على الفلاحين ضرائب هائلة . فكان يكفي ان يصدر امر

بسيط عن الحاكم او حتى عن موظف ما كبير حتى يزج بالانسان دون محاكمة او تحقيق في سجن تحت الارض وان يتعرض للجلد والتعذيب المضني او حتى للاعدام . وكان السكان ينقسمون ، كما هو الامر في كافة الدول الاقطاعية ، الى اقطاعيين مستثمِرين في ايديهم السلطة السياسية ، ومستثمَرين ، فلاحين وحرفيين محرومين من الحقوق . وكانت المؤسسات الصناعية والبروليتاريا الاهلية معدومة هنا او تكاد.

وهكذا ، فان جميع السكان الاصليين في آسيا الوسطى كانوا منقسمين الى طبقات وجدت بينها تناقضات حادة. فمن جهة كان المستثمِرون الاقطاعيون والبرجوازية الوطنية (التجار والكولاك * وعدد قليل من اصحاب المؤسسات الصناعية)، ومن الجهة الاخرى المستثمَرون (الفلاحون والحرفيون والاجراء الزراعيون وبروليتاريا المدن المحلية التي اخذت تظهر الى الوجود) . ان اساس الاستثمار هو ملكية المستثمِرين الخاصة

* الكولاك هم الفلاحون الاغنياء الذين يستغلون عمل الغير . المعرب.

لوسائل الانتاج ـ للارض والماء والمواشي والعتاد الزراعي والمؤسسات الصناعية . ولكن الجماهير الشعبية الكادحة في آسيا الوسطى كانت متخلفة جدا وغير مجربة في المجال السياسي ، انها لم تدرك الفحوى العميق للتناقضات الطبقية ولم تفهم ان الخانات والبايات هم ألد اعداء الكادحين البسطاء . وكان الوعي السياسي متخلفا بصورة خاصة عند تلك الشعوب التي كان لا يزال قائما عندها التنظيم القبلي العشائري ومخلفات اخرى من النظام القبلي العشائري .

كما ان الامية العامة تقريبا قد اعاقت هي ايضا تطور الوعي السياسي عند شغيلة آسيا الوسطى. ففي منطقة ما وراء بحر قزوين من اقليم تركستان ، مثلا ، كان عدد غير الاميين من الالف انسان من السكان الاصليين ٧ فقط . وكان يلزم احيانا الطواف في عدة قرى بغية العثور ولو على انسان واحد فقط يعرف القراءة والكتابة . ولم يكن للسكان الاصليين كلهم في المنطقة وعددهم ، ٣٣٥ الفا من التركمانيين والكازاخيين ، سوى ٢٧ مدرسة تضم ٤٨ مدرّسا و١٥٠٠ تلميذ . وكانت حالة التعليم

العام في خيوه وبخارى اسوأ من ذلك . ولم يكن بين الاوزبكيين والتركمانيين والطاجيكيين والقرغيزيين والقراقالباقيين طبيب واحد او مهندس زراعي او مهندس، ناهيك عن العلماء . وقبل الثورة عام ١٩١٧ ، لم يكن في قرى آسيا الوسطى لا مكتبات ولا نواد ولا مستشفيات. ولم يكن يوجد عام ١٩١٣ في اراضي طاجيكستان التي كان يقطنها حوالي مليون نسمة ، الا ١٣ طبيبا فقط ، وكلهم من الاوروبيين الذين كانوا يقومون على خدمة الروس وحدهم تقريبا . وكان اهالي البلاد الاصليون مضطرين للتداوي عند الدجالين الجاهلين الذين كانوا « يعالجون » بمختلف التعاويذ والحجب وما الى ذلك . ولهذا كانت الامراض المعدية ـ مثل السل والتراخوما والملاريا وكثير غيرها متفشية بصورة واسعة بين السكان المحليين . وقد اودت اوبئة الجدري والكوليرا والطاعون بارواح كثيرة، وكانت نسبة الوفيات عالية على الاخص بين الاطفال والنساء .

كانت نسبة الوفيات العالية بين نساء آسيا الوسطى ترجع الى وضعهن الشاق للغاية . فقد كانت المرأة عند الرجل

رقيقا محروما من الحقوق . وكانت تنتشر انتشارا واسعا عادات مذلة مخزية مثل شراء الزوجة، والزواج من غير البالغات، الخ.. ولم تكن للمرأة ملكيتها الخاصة ولا كان بوسعها ممارسة الاقتصاد المستقل . وكان بمستطاع الزوج معاملتها بقسوة واثقال كاهلها بالعمل . وكانت المرأة عند الاوزبكيين والقسم الاكبر من الطاجيكيين ملزمة بان تغطي وجهها بالحجاب عندما تخرج من البيت ، وكانت التركمانية تغطي فمها بالمنديل بحضور الرجال .

وكانت القيصرية تنتهج سياسة رجعية في آسيا الوسطى ، ساعية بذلك الى عرقلة تطور الثقافة والابقاء على القوميات المحلية في الظلام والجهل لكيما يسهل عليها اضطهادها . ولم يكن بمستطاع شعوب آسيا الوسطى اصدار الصحف والكتب باللغة القومية، وكانت القيصرية تحول دون افتتاح المدارس وانشاء فئة من المثقفين المحليين . وقد وجدت سياسة القيصرية هذه المساندة من قبل اغلبية الاقطاعيين وشيوخ القبائل المحليين

الذين استغلوا شعار «صيانة العادات والتقاليد القديمة».

ان السياسة الاستعمارية الظالمة التي انتهجتها القيصرية - كالاستيلاء على الاراضي ، والتمييز حيال السكان الاصليين ، وموقف الموظفين الروس المتعجرف ازاءهم - كل هذا ولد بصورة طبيعية عند الشغيلة المحليين عدم الثقة ، واحيانا الموقف العدائي تجاه كل ما هو روسي، بمن في ذلك الشغيلة الروس . فلم يتسن للشعوب المظلومة في آسيا الوسطى ان تدرك من اول وهلة التضاد الجذري بين المستعمرين القياصرة والشعب الروسي الكادح المناضل في سبيل القضاء على النظام البرجوازي الاقطاعي وتحرير كافة شعوب روسيا من النير السياسي والاقتصادي والقومي .

بداية الحركة الثورية في آسيا الوسطى . ان السياسة الماكرة للقيصرية التي سعرت اوار العداء القومي بين الشغيلة ، وتواطؤ الاقطاعيين المحليين مع الادارة القيصرية ، وكذلك التخلف السياسي وامية السكان المحليين - كل هذا زاد من صعوبة انطلاق النضال

الثوري عند شغيلة آسيا الوسطى ضد الظالمين : المستعمرين الروس والخانات والبايات المحليين .

ولكن هذا النضال مع ذلك قد بدأ . ففي نهاية القرن التاسع عشر جرت سلسلة من الاضرابات والانتفاضات العفوية التي اشترك فيها العمال الروس والعمال المحليون على حد سواء. واشترك في النضال ايضا فلاحو آسيا الوسطى – التركمانيون والاوزبكيون والقرغيزيون . وفي عدة احوال كان يصل الامر الى خوض المعارك ضد جيوش وشرطة القيصرية .

وظهرت في عامي ١٩٠٣ – ١٩٠٤ في مدن آسيا الوسطى المنظمات الاولى لحزب العمال الاشتراكي - الديموقراطي الروسي * . كانت هذه المنظمات ،

---

* اسس حزب العمال الاشتراكي - الديموقراطي الروسي في عام ١٩٠٣. وكان ينقسم الى جناحين – جناح الماركسيين الثوريين (البلاشفة) برئاسة لينين، وجناح الانتهازيين (المناشفة). عام ١٩١٢، جرى طرد المناشفة من الحزب بقرار من الاغلبية. وفي عام ١٩١٨، أخذ الحزب تسمية جديدة باقتراح قدمه لينين و اصبح اسمه الحزب الشيوعي (البلشفي) الروسي.

وفقا للتعاليم اللينينية ، منظمات اممية دخل فيها سواء العمال والجنود الروس او العمال المحليون . وفي هذين العامين، كان الاخيرون قلة في الحزب ، ولكن المنظمات الحزبية سعت بكل الوسائل لجذبهم الى صفوفه . وكان الشيوعيون يشرحون للجماهير بان الماركسية تعبر علميا عن المصالح الجذرية لشغيلة جميع الامم ، ويرصون صفوف الجماهير تحت الراية اللينينية .

وتحت قيادة الحزب ساهم عمال آسيا الوسطى مساهمة نشيطة في الثورة الروسية الاولى في سنوات ١٩٠٥ – ١٩٠٧ * .

---

* استهدفت ثورة سنوات ١٩٠٥ – ١٩٠٧ اسقاط الحكم المطلق القيصري، واعلان روسيا جمهورية ديموقراطية، وتوزيع اراضي الاقطاعيين على الفلاحين. كانت الطبقة العاملة التي يقودها حزب العمال الاشتراكي - الديموقراطي الروسي والمستندة الى التحالف مع الفلاحين هي القوة المحركة الرئيسية للثورة. غير ان الثورة منيت بالفشل بسبب النقص في تنظيم العمال والفلاحين، وانعدام الوحدة في الحزب؛ وكانت المساعدة التي قدمتها البرجوازية الفرنسية والاميركية للقيصرية الروسية احد اسباب فشل الثورة.

وقد اشترك عمال جميع القوميات في الاضرابات السياسية الجماهيرية والاجتماعات والمظاهرات الثورية ، التي جرت في خريف عام ١٩٠٥ . واخذ فلاحو آسيا الوسطى يمتلئون ثقة بالعمال الثوريين وقادتهم اعضاء حزب لينين ، وهم يشاهدون ان العمال الروس وغيرهم من العمال يناضلون بجرأة ضد الشرطة المكروهة والموظفين المستعمرين وحتى ضد القيصر نفسه . وشرع الفلاحون ايضا بالمساهمة في النضالات الثورية . وعلى هذه الصورة ، منذ بداية القرن العشرين، أخذ يتكون اتحاد ثوري كفاحي بين بروليتاريا روسيا المتعددة القوميات والفلاحين الكادحين في آسيا الوسطى . . وأخذت سياسة الحكم المطلق القيصري الموجهة لتسعير اوار العداء بين الشغيلة الروس والمحليين تمنى بالفشل تلو الفشل .

وكان اقتراب شغيلة آسيا الوسطى من الشغيلة الروس في مجرى النضال الثوري المشترك في سبيل التحرر الوطني والاجتماعي ظاهرة تقدمية وضمانا للنجاح في نضالهم المشترك . ففي مجرى هذا النضال ، كان

العمال الروس يتغلبون على تأثير الافكار البرجوازية الشوفينية ، اما العمال والفلاحون المحليون فكانوا يتغلبون على عدم الثقة العفوي تجاه كل ما هو روسي ، الذي بذرته السياسة الاستعمارية الوحشية التي انتهجتها القيصرية .

٢. ثورة اكتوبر الاشتراكية وتحرير شعوب آسيا الوسطى

انتصار الثورة الاشتراكية في تركستان . في عام ١٩١٤ ، زج الاستعماريون البشرية في حرب دموية استغرقت اربعة اعوام . وهذه الحرب العالمية في سنوات ١٩١٤ ــ ١٩١٨ جلبت للشعوب مصائب لا تحصى ، وزادت من تفاقم جميع تناقضات الاستعمار . وقد كانت مظهرا ساطعا لأزمة الرأسمالية العامة التي بدأت

لتوها ، ورمزت الى اقتراب الثورة الاشتراكية السريع. وكانت شعوب روسيا هي اول من خرق سلسلة الامبريالية .

ان الثورة البرجوازية الديموقراطية التي اندلعت في روسيا في شباط (فبراير) عام ١٩١٧ قد كنست من على وجه الارض القيصرية ـ خانقة حرية الشعوب . ولكن البرجوازية الروسية التي جاءت الى السلطة ابقت على النظم الاستغلالية القديمة ، وواصلت انتهاج سياسة اضطهاد الشعوب المستعمرة .

وفي الفترة الممتدة من شباط (فبراير) الى تشرين الاول (أكتوبر) عام ١٩١٧ ، اجتازت الجماهير الشغيلة مدرسة حياتية عظيمة اثبتت صحة الموضوعة الماركسية القائلة بان الثورة الاشتراكية واقامة سلطة العمال والفلاحين هما وحدهما اللتان بوسعهما القضاء المبرم على الظلم الاجتماعي والقومي . وقد اجتاز هذه المدرسة الحياتية العظيمة كذلك شغيلة تركستان الذين أخذوا ، منذ ربيع عام ١٩١٧ ، بالاستعداد للثورة الاشتراكية سوية مع جميع شغيلة روسيا .

وتطورت الثورة الاشتراكية هنا في ظروف خاصة فريدة من نوعها . وقد قال لينين فيما بعد ، مشيرا الى الاهمية الكبرى لتجربة نضال الحزب الشيوعي في سبيل انتصار الثورة الاشتراكية في المستعمرات ، ما يلي : «ان نشاط الشيوعيين الروس العملي في المستعمرات القيصرية السابقة ، في بلدان متأخرة كتركستان وغيرها قد وضع امامنا المسألة التالية : كيف نطبق الخطة الشيوعية والسياسة الشيوعية في ظروف ما قبل الرأسمالية لأن السمة المميزة الهامة في هذه البلدان هي كون السيطرة فيها لعلاقات ما قبل الرأسمالية ، ولذلك لا مجال فيها لحركة بروليتارية صرف . تكاد البروليتاريا الصناعية تكون معدومة في هذه البلدان . وبالرغم من ذلك اضطلعنا فيها بدور القادة ، وينبغي لنا ان نضطلع بهذا الدور»*.

كانت الصعوبة الرئيسية وفي الوقت نفسه الشرط الرئيسي لنجاح الثورة الاشتراكية في تركستان يكمنان في

---

* لينين. مجموعة «حركة شعوب الشرق الوطنية التحريرية». الطبعة العربية، ص ٣٧٠.

مهمة رص صفوف الملايين العديدة من الفلاحين المحليين حول العمال القليلي العدد ، هؤلاء الفلاحين غير الناضجين سياسيا والذين لم يتخلصوا بعد من عدم الثقة العفوي تجاه كل ما هو روسي ، بمن في ذلك العمال الروس الذين كانوا يؤلفون القسم الاكبر من الطبقة العاملة في آسيا الوسطى .

ان السنوات العديدة من النضال المشترك واعمال الشيوعيين العنيدة اقنعت الجماهير في ان الطبقة العاملة الروسية والفلاحين المحليين يجب ان يكونوا حلفاء لان لهم عدوا واحدا مشتركا هو البرجوازية الروسية الامبريالية التي كانت تضطهد بوحشية شغيلة جميع القوميات في روسيا .

لقد نهضت حركة التحرر الوطني عند شعوب تركستان المظلومة جنبا الى جنب مع الحركة العمالية ، الاشتراكية وبالتحالف معها . ان الشيوعيين والطبقة العاملة التي يقودونها قد ناضلوا بثبات وبلا كلل في سبيل تحرير جميع الشعوب ومساواتها في الحقوق . وساند الشيوعيون في تركستان نضال الفلاحين المحليين

في سبيل اعادة الاراضي التي استولى عليها المستعمرون ، والغاء الادارة القيصرية القديمة المكروهة من الشعب ، ومن اجل الحقوق السياسية للسكان الاصليين في المنطقة . ولقد احرزت الطبقة العاملة وطليعتها الحزب الشيوعي بسياستهما الامية ثقة الشعوب المظلومة . وفي ايلول (سبتمبر) عام ١٩١٧ ، لاحظ لينين بان « سواد السكان من الامم المضطهَدة ، اي سواد برجوازيتها الصغيرة ، تثق ببروليتاريا روسيا اكثر مما تثق بالبرجوازية ، اذ ان التاريخ وضع في جدول الاعمال هنا قضية النضال في سبيل تحرير الامم المضطهَدة من الامم التي تضطهدها. لقد خانت البرجوازية بسفالة قضية حرية الامم المضطهَدة، ولكن البروليتاريا امينة لقضية الحرية ».*

كان الشيوعيون منظمي النضال الثوري الذي خاضه العمال والجنود والشعوب المظلومة في تركستان . وقد وجدوا سندا لهم في المنظمات الجماهيرية الوطنية الثورية الديموقراطية التي ظهرت في تزكستان عام ١٩١٧ وهي

* لينين. «هل يحتفظ البلاشفة بالسلطة؟». الطبعة العربية، ص١٧.

« اتحاد الشغيلة » في المدن الاوزبكية ، واتحاد « الفقراء » في مضارب الرحل في قرغيزيا ، الخ.. وبالعكس من ذلك، فان المنظمات السياسية التابعة للاقطاعية المحلية والبرجوازية الوطنية اللتين كانتا تخنعان امام الحكومة الموقتة الامبريالية في روسيا ، لم تتمتع بمساندة الجماهير .

كانت حركة التحرر في تركستان مرتبطة ارتباطا وثيقا بالحركة الثورية في روسيا المركزية .

كان تحرير شعوب آسيا الوسطى من النير الاجتماعي والقومي نتيجة مباشرة لثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى التي دشنت عصرا جديدا في تاريخ البشرية — عصر انهيار الرأسمالية ورسوخ الشيوعية .

لقد اوصلت ثورة اكتوبر الاشتراكية العمال والفلاحين الى السلطة ، وانشأت طرازا جديدا من الديموقراطية — الديموقراطية للشغيلة . وانتزعت الحكومة السوفييتية روسيا من الحرب الامبريالية العالمية ، واممت الصناعة والسكك الحديدية والبنوك ، واممت الارض ووزعتها على الفلاحين . وهزّت ثورة اكتوبر حتى

الاسس بناية الرأسمالية العالمية باكملها . وانقسم العالم الى نظامين . وارتفعت راية الاشتراكية على سدس الكرة الارضية . وحصلت البشرية على حصن منيع في نضالها من اجل الحرية والديموقراطية ، وضد حروب النهب ، وفي سبيل السلم وأمن الشعوب .

ان نبأ انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية وتكوين الحكومة السوفييتية برئاسة لينين ومرسومي السلطة السوفييتية التاريخيين عن الارض والسلام ، طاف بسرعة البرق جميع انحاء تركستان وآسيا الوسطى قاطبة .

لقد رحب شغيلة تركستان وساندوا مساندة حارة العمال والفلاحين الفقراء في روسيا ، الذين اطاحوا تحت قيادة الحزب الشيوعي بديكتاتورية البرجوازية واقاموا ديكتاتورية البروليتاريا .

وبعث البهجة بصورة خاصة في شعوب تركستان واقع ان ثورة اكتوبر قد خلعت قيود الحكم الاستعماري وحملت الحرية للشعوب المظلومة في السابق . ففي الوثيقتين ذاتي الاهمية السياسية الهائلة « اعلان حقوق شعوب روسيا » والنداء الموجه « لجميع الشغيلة المسلمين

في روسيا والشرق » ، اعلنت الحكومة السوفييتية على رؤوس الاشهاد مساواة وسيادة جميع الشعوب وحقها في تقرير المصير بما في ذلك الانفصال وتكوين الدول المستقلة .

• ان ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ، اذ قضت بضربة واحدة على نير الحكم الاستعماري في روسيا ، اتاحت الفرصة لشعوبها كي تبني حياتها بحرية وبالشكل الذي ترتئيه . انها بينت لجميع الشعوب المستعبدة لاول مرة في التاريخ الطرق الواقعية للتحرر من الظلم القومي . ففي ايام اكتوبر عام ١٩١٧ بالذات، بدأت العملية التاريخية التي يكللها اليوم انهيار نظام المستعمرات الامبريالي .

وكانت شعوب آسيا الوسطى في عداد الشعوب الاولى التي احرزت الحرية . ففي تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٧ ، ونتيجة للانتفاضة المسلحة في طشقند ، اقيمت في منطقة تركستان السلطة السوفييتية التي شرعت ببناء الحياة الجديدة . وبدأ تأميم المؤسسات الصناعية واكبر ممتلكات الاقطاعيين الروس ، الخ . ..ودخل في

الهيئات السوفييتية الكثير من ممثلي السكان الاصليين الذين حصلوا الآن على كامل الحقوق السياسية سوية مع الشغيلة الروس . وقامت الحكومة السوفييتية فورا ، برغم الوضع الاقتصادي الشاق في روسيا ، بارسال الحبوب والبضائع الصناعية الى تركستان . وكانت الهيئات السوفييتية في تركستان تبيع البذار للفلاحين الفقراء بشروط مسهلة وتقدم لهم التسليفات . وحرم على المرابين انتزاع الارض والحبوب من الفلاحين المدينين لهم . ووضع حد لاستيلاء المزارع الكبيرة على مياه الري بصورة اعتباطية . على هذا النحو ، سعت الهيئات الحزبية والسوفييتية جهدها ، فورا وعلى قدر الامكان آنذاك ، لتحسين الوضع المادي عند الجماهير الشغيلة الواسعة ، الامر الذي لعب دورا كبيرا في توطيد مكاسب الثورة .

ومن بين العمال وفقراء الفلاحين جرى تنظيم الفصائل المسلحة — الحرس الاحمر . وسرعان ما برهن التاريخ على ان الاهتمام بتأسيس الحرس الاحمر ، وفيما بعد الجيش الاحمر النظامي ، لم يكن عبثا . فلولا

القوات المسلحة الثورية القادرة على خوض المعارك والمخلصة حتى النهاية للشعب والتي يقودها الحزب، لما تمكن الشعب من الذود عن مكاسب الثورة .

ان المستثمرين الذين اطاحت بهم الثورة ابوا التسليم بقيام السلطة الجديدة ، سلطة الشعب . ولذا استعر اوار النضال الطبقي. وبمساندة الامبرياليين في الغرب، اخذ الرأسماليون والموظفون الروس والاقطاعيون المحليون بتدبير المؤامرات بغية اسقاط السلطة السوفييتية . وانتقل الى جانبهم في هذه اللحظة القسم الاكبر من البرجوازية الوطنية في تركستان .

بم يفسر موقف البرجوازية هذا ؟ انه يفسر بواقع ان البرجوازية الوطنية من حيث طبيعتها تتسم بطابع مزدوج. فمن جهة كانت البرجوازية الوطنية في تركستان تعاني من الظلم القومي وكانت الثورة ضد الامبريالية وضد الاقطاعية من مصلحتها الموضوعية. ومن جهة اخرى كانت، بمقدار تفاقم النضال الطبقي ، تبدي ميلا متزايدا للتفاهم مع الامبرياليين الروس والاقطاعيين المحليين . لقد قابلت البرجوازية الوطنية في تركستان بقلق انتقال السلطة

الى ايدي الشعب وحاولت فصل تركستان عن روسيا السوفييتية واعادة الانظمة الاستغلالية فيها .

لقد تواطأ قادة البرجوازية الوطنية في تركستان مع الاقطاعيين المحليين ، والرجعيين من رؤساء رجال الدين ، واقاموا ضد الحكومة السوفييتية في طشقند ، حكومتهم المعادية للثورة ، « حكومة الاستقلال الذاتي » في قوقند . واقام « اصحاب الحكم الذاتي » بصورة فورية الصلة مع المستعمرين الروس الذين اطاحت بهم الثورة ومع الاستعماريين الانكليز ، وحصلوا منهم على المساعدة المالية والعسكرية . ان « اصحاب الحكم الذاتي » ، اذ خانوا شعبهم ، على هذه الصورة ، بدخولهم في اتحاد مع ألد اعدائه ، كانوا في الوقت نفسه يصورون انفسهم كذبا وبهتانا بانهم « الزعماء الوطنيون » ويجعجعون حول « الوحدة الوطنية » .

غير ان شغيلة تركستان لم يتبعوا « اصحاب الحكم الذاتي » وحماتهم — المستعمرين . فقد بقوا اوفياء لتحالفهم مع البروليتاريا الروسية . ووجد « اصحاب

الحكم الذاتي » انفسهم جنرالات بلا جيش وسقطت حكومتهم قبل ان يمضي على قيامها ثلاثة اشهر .

وفي الوقت نفسه ، اتخذ شيوعيو تركستان بتوجيه من لينين اجراءات عاجلة لحل المسألة القومية في المنطقة حلا صحيحا . ففي ٣٠ نيسان (ابريل) عام ١٩١٨ ، اعلن مؤتمر السوفييتات في المنطقة على رؤوس الاشهاد عن تأسيس جمهورية تركستان الاشتراكية السوفييتية ذات الحكم الذاتي الداخلة في نطاق جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية . كانت هذه الحادثة خطوة هامة في طريق قيام الدول القومية السوفييتية عند شعوب آسيا الوسطى . وقد قوبلت هذه الخطوة بالاعجاب والترحيب من قبل السكان الاصليين في تركستان . وأخذ عدد متزايد من الاوزبكيين والتركمانيين والقرغيزيين والطاجيكيين يساهم بصورة فعالة في عمل السوفييتات وينتمي الى الحزب الشيوعي ، ويسجل في فصائل الحرس الاحمر والجيش الاحمر الفتي لكي يدافع بالسلاح عن الحرية المكتسبة . وفي حزيران (يونيو) عام ١٩١٨ ،

اسس الحزب الشيوعي التركستاني بصفة منظمة مقاطعة للحزب الشيوعي (البلشفي) الروسي .

الحرب الأهلية والتدخل الاجنبي العسكري في تركستان . ان الجمهورية السوفييتية الفتية التي ولدها اكتوبر العظيم سرعان ما اضطرت الى الكف عن البناء السلمي . فقد بدأت الحرب الاهلية والتدخل الاجنبي العسكري .

من ذا الذي بدأ الحرب الاهلية ؟ لم يبدأها العمال ولا الفلاحون ولا السلطة السوفييتية ، بل بدأتها الطبقات المستثمرة المطاح بها ، الساعية جهدها لاعادة وضعها السابق المميز . انها هي بالذات التي شهرت السلاح هي الاولى وشنت الحرب على السلطة السوفييتية واضطرت الشغيلة الى حمل السلاح لقمع الاعداء .

من ذا الذي دعم الثورة المعادية الداخلية؟ انهم الامبرياليون الاجانب ــ الانكليز والاميركيون والفرنسيون والالمان ــ الذين رأوا في السلطة السوفييتية خطرا على بقائهم . لقد خشي الامبرياليون ، خشية لها ما يبررها تماما ، من ان حركة التحرر العاتية التي بدأت

في روسيا ستشمل فيما بعد العالم بأسره . فاخذوا في البدء يدعمون بالخفاء الثورة المعادية الداخلية ، ولكنهم ، اذ شاهدوا انها عاجزة عن الاطاحة بالسلطة السوفييتية بقواها الخاصة ، فنظموا تدخلا عسكريا مكشوفا وانقضوا من جميع الجهات على روسيا السوفييتية . وقد كان هدف كل ضارية من الضواري الامبريالية ، عدا الهدف المشترك وهو خنق السلطة السوفييتية ، انتزاع اكبر قسم ممكن من اراضي البلاد السوفييتية .

فالامبرياليون الالمان اذ انتهكوا اتفاقية الصلح المعقودة مع روسيا السوفييتية ، استولوا على مناطق البلطيق وعلى اوكرانيا والقرم وعلى قسم ملحوظ من اراضي بيلوروسيا وما وراء القفقاس . وفي الشمال جرى احتلال مورمانسك وارخانجلسك من قبل الجيوش الانكلو- فرنسية والاميركية . وغزت الشرق الاقصى القوات اليابانية ومن ثم الجيوش الاميركية والانكلو - فرنسية . وحوالي صيف عام ١٩١٨ ، كان الاعداء قد استولوا على اهم مناطق التموين والخامات والمحروقات في روسيا .

وسعى الاعداء للاستيلاء على تركستان السوفييتية ايضا . فقد تقدمت نحوها من الشمال جيوش الحرس الابيض الروسي. وفي فرغانة وما وراء بحر قزوين تمرد اعداء الثورة المحليون . وزحفت الجيوش الانكليزية نحو تركستان لمساعدتهم . كانت الجمهورية مطوقة بحلقة من الجبهات ومعزولة عن روسيا السوفييتية .

لقد بذلت المنظمات الحزبية والسوفييتية في تركستان جهودا بطولية لتنظيم الدفاع عن المنطقة . وكان كل العمل في المؤخرة خاضعا لمهمات النضال المسلح ولخدمة الجبهة . ولكن الوضع في تركستان المحاصرة من قبل الاعداء كان صعبا للغاية . وكان هناك نقص في الخبز والبضائع الصناعية وانتشر فتك الجوع والاوبئة .

وفي الجبهات كانت تدور رحى المعارك الطاحنة . ورغم النقص في الاسلحة والعتاد الحربي ، اظهرت قوات العمال والفلاحين عن بطولة جماهيرية فدحرت الهجمات العديدة التي قام بها الاعداء الذين انقضوا من جميع الجهات .

لقد الهم شغيلة تركستان الهدف التحرري العظيم ومساندة الحكومة السوفييتية التي كان يترأسها خير صديق للامم المظلومة فلاديمير ايليتش لينين .

فقد ارسلت الى تركستان من موسكو ، بامر من لينين ، كمية كبيرة من الاسلحة والعتاد الحربي تحت حراسة فصيلة عسكرية قوية . وقد اجتازت الفصيلة الصحاري المقفرة وذللت صعوبات لا تصدق في طريقها ، واستطاعت خرق حلقة الحصار وتوحدت مع وحدات الجيش الاحمر التركستاني. وكانت هذه الاسلحة والعتاد الحربي مساعدة الى تركستان لا تثمن. وارسلت بامر من لينين في آب (اغسطس) عام ١٩١٨ الى بحر قزوين بوارج حربية لاستخدامها في مقاتلة المتدخلين .

لقد كانت الجيوش السوفييتية في تركستان بمثابة اسرة اممية حقيقية . فقد حارب جنبا الى جنب مع الروس الاوزبكيون والتركمانيون والكازاخيون والقرغيزيون والطاجيكيون والتتر . وبعيدا عن الوطن اراق دمهم في سبيل الحرية الابناء الامجاد ، ابناء الشعوب الالماني والمجري واليوغوسلافي والتشيكي – اسرى الحرب

السابقون الذين كانوا في تركستان عند قيام ثورة اكتوبر ، وساهموا مساهمة فعالة في اقامة وتوطيد السلطة السوفييتية . ان شعوب آسيا الوسطى ستبقى الى الابد شاكرة لاشقائها لقاء المساعدة التي قدموها لها في هذه الفترة العصيبة للغاية من حياتها. وكما تقول الحكمة الشعبية ، يُعرف الصديق وقت الضيق .

واضيفت الى الصعوبات الناتجة عن الحرب والحصار الخلافات بين الشيوعيين والاشتراكيين ـ الثوريين اليساريين . فقد دخل ممثلو هذا الحزب البرجوازي الصغير سوية مع الشيوعيين في الهيئات السوفييتية في جمهورية تركستان .

لقد انتهج الشيوعيون بصورة حازمة نهج انتصار الاشتراكية . وبالعكس من ذلك ، فان الاشتراكيين ـ الثوريين اليساريين لم يكونوا اشتراكيين في واقع الامر . فهم لم يأخذوا بتعاليم ماركس واصروا على بقاء الاقتصاد الفلاحي الفردي الصغير ، وعارضوا تأميم الصناعة . كما انهم لم يكونوا ثوريين حتى النهاية — فلم يجرؤوا على قطع صلتهم بصورة حازمة بالاحزاب

البرجوازية المعادية للثورة ، وغالبا ما اظهروا التذبذب والارتباك . لقد اضعف هذا السلطة السوفييتية في تركستان وعرضها اكثر من مرة لخطر الهلاك. وعندما عقد في نهاية عام ١٩١٧ حلف مع الاشتراكيين - الثوريين اليساريين ، كان هذا الحزب يتمتع بمساندة قسم ملحوظ من الفلاحين والبرجوازية الصغيرة في المدن . ولكن ، في جو النضال الطبقي المتزايد حدة ضد الثورة المعادية ، اصبحت تذبذبات الاشتراكيين - الثوريين اليساريين لا تطاق ابدا ، وسرعان ما فضحتهم بوصفهم حلفاء للثورة غير ثابتين. وشاهدت الجماهير الشعبية هذا فانفضت عن هذا الحزب البرجوازي الصغير. وفي ربيع عام ١٩١٩ ، فقد حزب الاشتراكيين - الثوريين اليساريين في تركستان بصورة نهائية ثقة الجماهير وتفسخ*.

على هذه الصورة ، تكوّن في جمهورية تركستان ، كما في البلاد السوفييتية بأسرها ، نظام الحزب الواحد

* في روسيا المركزية كان هذا الحزب قد مني بالفشل قبل هذه المدة — في صيف عام ١٩١٨.

من الديموقراطية الاشتراكية ، لان حزب الشيوعيين برئاسة لينين هو وحده الذي برهن على انه المناضل العنيد حتى النهاية في سبيل الثورة ، في سبيل الاشتراكية، والقادر على ايصال الجماهير الشعبية الى النصر النهائي على الاعداء العديدين . وسار وراء هذا الحزب جميع الشغيلة . ان القيادة الصحيحة التي مارسها الحزب الشيوعي قد أمنت انتصار شعوب البلاد السوفييتية في الحرب الاهلية الشاقة .

وفي الوقت الذي كانت فيه مؤخرة الجيش الاحمر تتعزز اكثر فاكثر، كان وضع المتدخلين والحرس الابيض يتردّى . فان نظام الارهاب والتعسف واعادة النظم البرجوازية قد اثارا سخط الجماهير الشعبية . وقد كانت المنظمات البلشفية السرية تنشط في عدد من المدن. وكان العمال يعلنون الاضراب عن العمل ، ويعرقلون سير القطارات ، ويعطلون تنفيذ الطلبات العسكرية . ورفض الفلاحون تزويد المتدخلين بالمؤن وانشأوا فصائل الانصار . وفي نار الحرب الاهلية تعزز التحالف العسكري والسياسي بين العمال والفلاحين

في آسيا الوسطى وفي البلاد السوفييتية بأسرها . وهذا
التحالف الذي يرأسه الحزب الشيوعي اللينيني عجزت عن
قهره الجيوش المعادية للثورة المدججة بالسلاح .

كان جنود المتدخلين يقتنعون اكثر فاكثر بالاهداف الاغتصابية للحرب ، ويطالبون باعادتهم الى اوطانهم . واتسع نطاق حركة التحرر الوطني في الهند وافغانستان ومصر وغيرها من البلدان ، مما جذب الكثير من قوى واهتمام الامبرياليين الانكليز . واشتدت الحركة الثورية في انكلترا نفسها ؛ واخذت البروليتاريا الانكليزية تطالب باصرار متزايد بالكف عن التدخل ضد روسيا السوفييتية . كل هذا ارغم الامبرياليين الانكليز على سحب جيوشهم من منطقة ما وراء بحر قزوين. ولكن الوضع في تركستان بقي بعد هذا ايضا في غاية الصعوبة او في حالة حرجة تقريبا .

وجاءت المساعدة من جانب روسيا السوفييتية ،
القاعدة الرئيسية للثورة. فان القوى الرئيسية في الجيش
الاحمر التي جاءت لنجدة تركستان المحاصرة قد خرقت جبهة البيض وتوحدت ، في خريف عام ۱۹۱۹ ، مع

القوات التركستانية . وسرعان ما اندحرت نهائيا القوات المسلحة المعادية للثورة، وقذف بها الى خارج الأرض التركستانية .

هكذا انتهت الحرب الاهلية في تركستان . وقد ربحها الشعب بفضل استبسال وعناد الجماهير ، اللذين لم يسبق لهما مثيل ، وبفضل المساعدة الفعالة من جانب روسيا السوفييتية ، وبفضل التحالف الوطيد بين العمال والفلاحين من جميع الامم ، وبفضل العطف والمساندة من جانب الشغيلة في البلدان الاجنبية ، وبفضل القيادة الماركسية ـ اللينينية الثابتة التي مارسها الحزب الشيوعي .

بيد ان النضال لم يكن قد انتهى بعد ، لان قرابة ثلث سكان آسيا الوسطى كان ما يزال يرزح تحت اعباء النير الاقطاعي ، نير خان خيوه وامير بخارى .

انتصار الثورتين الشعبيتين في خيوه (خوارزم) * وبخارى . خلافا لمنطقة تركستان ، لم تحدث الثورة

* خوارزم هو الاسم القديم لامارة خيوه. بعد الثورة بعثت هذه التسمية من جديد.

الاشتراكية في خيوه وبخارى عام ١٩١٧. ان هاتين الامارتين الاقطاعيتين كانتا اكثر تخلفا من تركستان ؛ لم تكن هناك طبقة عاملة على الاطلاق تقريبا ، كما وانه لم يكن هناك حزبان شيوعيان . ولم يكن شعبا هاتين البلدين مستعدين بعد لخوض النضال الثوري الجماهيري . وفي الوقت نفسه، لم ينو العمال الروس وطليعتهم ، الحزب الشيوعي الروسي ، التدخل بالقوة في الشؤون الداخلية لشعبي خيوه وبخارى ، وفرض وجهات نظرهم السياسية عليهما بالعنف . لقد تطلب الامر وقتا معينا حتى تنضج الظروف من اجل الثورة وحتى تدرك الجماهير الشعبية الواسعة ضرورة التحولات الثورية ، الى ان ترغب في العيش على نمط جديد . ان التعجيل المصطنع للثورة في هذه الحالة هو مغامرة غريبة كليا عن الماركسية ـ اللينينية .

وكان الدور الاكبر في ايقاظ الجماهير الشعبية في خيوه وبخارى لثورة اكتوبر الاشتراكية واقامة السلطة السوفييتية في تركستان . فشغيلة خيوه وبخارى ـ وهم ايضا من الاوزبكيين والتركمانيين

والطاجيكيين كما هو الامر في تركستان ـ اذ كانوا يعيشون في جوار المناطق السوفييتية وتربطهم آلاف الخيوط بهذه المناطق ، شاهدوا بام اعينهم ان افراد قبائلهم قد احرزوا الحرية ، وان السلطة السوفييتية تدافع عن مصالح الشعب الكادح وتحميه من التعسف والعنف . وقد اثر هذا تأثيرا ثوريا كبيرا على جماهير الشغيلة في خيوه وبخارى .

وقد ساعد على هذا واقع ان الحياة اخذت تزداد مشقة في الامارتين ؛ فانحط الاقتصاد انحطاطا تاما . وتقلصت تقلصا حادا المساحات المزروعة وعدد رؤوس الماشية . وازدادت الضرائب ومختلف الاتاوات . وزاد تنكيل موظفي الخان الذين كانوا يقتصّون بصورة وحشية من الشغيلة لقاء ابسط المخالفات . كل هذا معا كان يثير سخط الجماهير الشعبية ويدفعها للقيام باعمال حاسمة .

هذه هي الظروف التي نضجت فيها الثورتان الشعبيتان في خيوه وبخارى .

لقد اتسمت هاتان الثورتان قبل كل شيء بالطابع

المعادي للاقطاعية . فهدفهما المباشر كان الاطاحة بالنظام الاقطاعي الاستبدادي . وقد ساهمت فيهما كل طبقات المجتمع تقريبا ـ لا الفلاحون وحرفيو المدينة فحسب ، وانما ايضا التجار الاوزبكيون وحتى بعض زعماء القبائل التركمانية الاقطاعيين المعادين لحكام خيوه في ذلك الوقت . وفي الوقت نفسه ، فان الثورتين كانتا موجهتين ايضا ضد الامبرياليين الانكليز وغيرهم من الامبرياليين ، الذين ساعدوا اقطاعيي خيوه وبخارى بالمال والسلاح .

في البدء ، كان الدور القيادي في التحضير للثورة يتبع للحزبين البرجوازيين ـ خيوه الفتاة وبخارى الفتاة . ولكن سرعان ما ظهرت في خيوه وبخارى منظمات ثورية ديموقراطية اكثر جرأة وتصميما تمثل فقراء المدن وفقراء الفلاحين . ففي عامي ١٩١٨ ـ ١٩١٩ ، وعلى اساس هذه الحلقات الثورية ، أخذ يتكون الحزبان الشيوعيان في خوارزم وبخارى . وكان هذان الحزبان اول حزبين شيوعيين في العالم ظهرا في ظروف الانعدام التام او الانعدام التام تقريبا للبروليتاريا الصناعية .

واخذ الثوريون في خيوه وبخارى يهيئون الجماهير الشعبية للثورة بتروٍّ واصرار . وفي مجرى هذا العمل الكبير الشاق ، كان الشيوعيون في هذين البلدين يتوجهون على الدوام بطلب المساعدة والنصيحة الى الحزب الشيوعي (البلشفي) الروسي ، مستفيدين من تجربته الغنية جدا . وتوجه ايضا بطلب المساعدة من الحزب الشيوعي (البلشفي) الروسي ومن الحكومة السوفييتية حزبا خيوه الفتاة وبخارى الفتاة ومنظمات وجماعات اخرى هبت للنضال ضد استبداد الخان والامير . وقدم الحزب الشيوعي الروسي المساعدة الشاملة للشيوعيين في خيوه وبخارى . وقدم الحزب المساعدة كذلك لحزبي خيوه الفتاة وبخارى الفتاة، فهماً منه لكون البرجوازية الوطنية التي مثلها هذان الحزبان ذات مصلحة حيوية في اسقاط النظم الاقطاعية الرجعية، ولذا فان بمستطاعها المساهمة في حل هذه المهمة الوطنية العامة .واكثر من ذلك ، فان الحزب الشيوعي (البلشفي) الروسي قد اعتبر ان من المفيد جذب حتى بعض زعماء القبائل الاقطاعيين كحلفاء ، بسبب

ان مساهمة فصائلهم ، في لحظة معينة ، في النضال ضد الخان والامير يمكنها ان تساعد على انتصار الثورة . وكما هو معلوم ، كان لينين يعتبر دائما انه من الممكن، لا بل من الضروري عدم رفض مثل هذه الاتفاقات التي يرجع عقدها بالفائدة على تطور الثورة .

وعملا بنصيحة الحزب الشيوعي (البلشفي) الروسي ، وحد الشيوعيون في خيوه وبخارى جهودهم مع المنظمات الاخرى المعادية للاقطاعية وقبل كل شيء مع حزبي خيوه الفتاة وبخارى الفتاة . وقد سهل تأسيس هذه الكتلة المعادية للاقطاعية انتصار الثورة في خيوه وبخارى . وفي الواقع، فان البرجوازية الوطنية في خيوه وبخارى ، وكذلك بعض التكتلات الاقطاعية قد ساهمت بفعالية في الثورتين الشعبيتين . ان السياسة المرنة التي انتهجها الحزب الشيوعي (البلشفي) الروسي قد بررت نفسها تاريخيا .

بدأت الثورة في خيوه في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٩ وانتهت بالنصر في شباط (فبراير) عام ١٩٢٠ . وبعد ذلك بقليل من الوقت، في آب ـ ايلول

(اغسطس – سبتمبر) عام ١٩٢٠ ، حدثت الثورة في بخارى . لقد توجه الشعبان الثائران في هذين البلدين بطلب المساعدة العسكرية من الحكومة السوفييتية ونالاها . وجرى اعلان خوارزم وبخارى جمهوريتين وعقدتا حلفا سياسيا واتفاقية اقتصادية مع جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية .

ان هاتين الثورتين كليهما لم تكونا اشتراكيتين. ونتيجة لانتصارهما لم تقم ديكتاتورية البروليتاريا ، كما جرى في روسيا السوفييتية (بما في ذلك في جمهورية تركستان الاشتراكية السوفييتية ذات الحكم الذاتي) ، وانما اقيمت سلطة السوفييتات الشعبية (سوفييتات الشغيلة) . ولكن انتصار الثورتين في خيوه وبخارى واقامة الجمهوريتين السوفييتيتين الشعبيتين في خوارزم وبخارى وتحالفهما الودي الوثيق مع جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية فتحت امام شعبي هذين البلدين مجال الانتقال الى طريق التطور الاشتراكي .

وهكذا ، فان الثورة في آسيا الوسطى اتسمت بطابع معقد جدا . ففي تركستان ، انتصرت عام

١٩١٧ الثورة الاشتراكية واقيمت جمهورية تركستان الاشتراكية السوفييتية ذات الحكم الذاتي الداخلة ضمن نطاق جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية ، والحزب الشيوعي التركستاني كان جزءا من الحزب الشيوعي (البلشفي) الروسي . وفي عام ١٩٢٠ ، انتصرت في خوارزم وبخارى الثورة الديموقراطية الشعبية وقامت دولتان مستقلتان مرتبطتان بجمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية بمعاهدات سياسية واقتصادية فقط. كما ان الحزبين الشيوعيين في خوارزم وبخارى لم يدخلا في قوام الحزب الشيوعي (البلشفي) الروسي . ان هذه الفروق عكست الخصائص الموضوعية للتطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في مختلف مناطق آسيا الوسطى في الفترة التاريخية السابقة. وقد تطلبت ازالة هذه الفروق، والتقارب بين جميع اجزاء آسيا الوسطى وقتا معينا واهتماما دائما من جانب الهيئات الحزبية والسوفييتية .

ولكن بصرف النظر عن هذه الفروق الخاصة ، قامت آسيا الوسطى بأسرها، في سنوات ١٩١٧ — ١٩٢٠ ، بخطوة لم يسبق لها مثيل الى الامام في تطورها التاريخي. ولاول مرة في العالم ، جرت الثورة الاشتراكية

في المستعمرات السابقة ، التي لم تمر في مرحلة التطور الرأسمالية ، جاذبة الى طريق التطور الثوري دولتين اقطاعيتين متخلفتين مثل خوارزم وبخارى. لقد برهن عمليا على ان من الممكن حتى للفلاحين البطريركيين الاكثر تأخرا ان يصبحوا ، لدى توفر القيادة الصحيحة من جانب الحزب الشيوعي ، حليفا امينا للطبقة العاملة ، ومساهما نشيطا وقوة محركة في الثورة الاشتراكية. ان هذا الواقع فتح آفاقا واسعة للنضال الثوري التحرري الذي تخوضه جميع شعوب المستعمرات.

٣. ما الذي توجّب عمله لبناء الاشتراكية في جمهوريات آسيا الوسطى

لقد نقلت ثورة اكتوبر البلاد السوفييتية بأسرها الى طريق الاشتراكية. ولكن طريق بناء الاشتراكية الذي ترتب على الشعب السوفييتي اجتيازه كان طريقا

صعبا غير مطروق . وكانت مهمة بناء الاشتراكية شائكة وصعبة على الخصوص في جمهوريات آسيا الوسطى حيث لم تكن توجد الصناعة تقريبا ، وحيث كان يسود الاقتصاد الفلاحي الصغير شبه الطبيعي المتخلف لاقصى حد ، وحيث كان السكان فقراء واميين .

لقد زعم اعداء اللينينية ، الاشتراكيون اليمينيون في اوروبا الغربية ، بان هذه المهمة لا يمكن حلها بوجه عام ، لا بل انها ، على حد زعمهم ، «تناقض الماركسية » . وحسب رأيهم ، لا تستطيع الوصول الى الاشتراكية إلا البلدان الرأسمالية العالية التطور .

غير ان الحزب الشيوعي اللينيني لم يتراجع امام هذه المهمة الصعبة . فقد استطاع الحزب ، اذ استند الى تعاليم ماركس وطبقها بصورة خلاقة في الظروف التاريخية الملموسة المتكونة في آسيا الوسطى ، شق طريق قويم امين لبناء الاشتراكية في جمهوريات آسيا الوسطى وضمان انتصارها .

وتوجّب على الحزب من اجل هذا القيام بنشاط نظري واسع : فقد كان من الضروري ، اولا ،

التطوير والتفسير المفصل لفكرة ماركس المتعلقة بامكانية وشروط التطور اللارأسمالي للبلدان المتأخرة اقتصاديا ، وثانيا ، تحديد اسس سياسة الحزب في جمهوريات آسيا الوسطى وغيرها من الجمهوريات والمناطق القومية في الشرق السوفييتي على اساس هذه القاعدة النظرية.

لننظر بالتفصيل في هاتين المسألتين .

هل التطور اللارأسمالي للبلدان المتخلفة اقتصاديا ممكن ؟ ان كارل ماركس وفريدريك انجلس عالجا نظريا مشكلة تحول المجتمع الرأسمالي تحولا ثوريا الى المجتمع الاشتراكي . ولكنهما لم يعتبرا ابدا بان جميع البلدان والشعوب ملزمة حتما باجتياز مرحلة التطور الرأسمالية ، قبل وصولها الى الاشتراكية ؛ بالعكس ، انهما أكدا غير مرة انه بمساعدة البلدان المتقدمة حيث تم انتصار الثورة الاشتراكية تستطيع الشعوب الضعيفة التطور من الناحية الاقتصادية الوصول الى الاشتراكية مجتنبة الرأسمالية . واعتبر ماركس وانجلس كذلك انه يمكن في بعض الحالات الاستفادة

في بناء الاشتراكية من بعض بقايا التنظيم المشاعي القديم ــ الملكية المشاعية للارض ، والعادات القديمة في العمل الجماعي ، وما الى ذلك . بيد ان المعالجة الاكثر تفصيلا لمشكلة التطور اللارأسمالي في القرن التاسع عشر لم تكن ممكنة بعد ، فلم تكن هناك تجربة تاريخية ملموسة .

فيما بعد ، حاول الاشتراكيون اليمينيون في اوروبا ان يدفنوا بوجه عام فكرة ماركس هذه ، لا بل انهم اخذوا يدافعون عن نظام الحكم الاستعماري المخزي . ولكن فلاديمير ايليتش لينين وانصاره ناضلوا ضد هؤلاء « الاشتراكيين » بصورة حازمة.

لقد عالج لينين نظريا المسألة المتعلقة بامكانية وشروط وطرق انتقال الشعوب المظلومة في المستعمرات الى الاشتراكية ، مجتنبة الرأسمالية ، وقام كذلك بالتوجيه العملي لاولى خطوات شعوب الشرق السوفييتي في طريق التطور اللارأسمالي . وساهم بقسط كبير في معالجة هذه المشكلة المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي

(البلشفي) الروسي الذي قاده لينين ، وغيره من مؤتمرات الحزب التالية .

فيمَ تكمن الاحكام الاساسية للنظرية الماركسية ـ اللينينية المتعلقة بمسألة امكانية التطور اللارأسمالي للبلدان المتخلفة سابقا ؟

انّ المحتوى الاساسي لعصرنا هو انتقال البشرية من الرأسمالية الى الاشتراكية . فالرأسمالية تتخبط في ازمة عامة . وقد تكونت ، في القطب المعارض لها ، المنظومة الاشتراكية العالمية التي تتعزز بسرعة . وظهور الاشتراكية يدشن حلول عصر تحرر الشعوب المظلومة . فتحت ضربات الثورات الوطنية التحررية تنهار آخر دعائم نظام الحكم الاستعماري . ان الرأسمالية عاجزة عن ايقاف عملية التحرر التي لا تقهر .

بالنسبة للبلدان التي خلعت نير الرأسمالية ولكنها ضعيفة التطور من الناحية الاقتصادية ، تنشأ في هذه الظروف التاريخية امكانية ملائمة وواقعية تماما للانتقال مباشرة الى الاشتراكية بالاستفادة من التجربة الغنية عند البلدان الاشتراكية ، وبالاستناد الى مساعدتها الاخوية

في البناء الاقتصادي والثقافي ، وفي النضال ضد العدو المشترك – الامبريالية .

ماذا يلزم حتى تتحول امكانية التطور اللارأسمالي هذه الى واقع حقيقي ؟

لهذا الغرض من الضروري ، اولا ، التحالف الوطيد بين الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين الاساسية وفئات الشغيلة الاخرى . ان تحالف الطبقة العاملة والفلاحين هو شرط ضروري لانتصار الاشتراكية في اي بلد . ولكنه هام بصورة خاصة في البلدان ، حيث الصناعة ضعيفة ، والعمال قلة ، ويؤلف الفلاحون الجمهور الاساسي من السكان . ان على هذا التحالف ان يغدو هنا اساسا ونواة للجبهة الوطنية الموحدة حيث يتسع المجال لجميع القوى التقدمية الوطنية بما في ذلك البرجوازية الوطنية .

يجب ان يكون على رأس تحالف العمال والفلاحين حزب ماركسي ثوري . وعلى الحزب الماركسي ، اذ يعتمد قبل كل شيء على البروليتاريا بوصفها اكثر طبقات المجتمع تنظيما وثورية ، ان يقوي

في الوقت نفسه بلا كلل الصلة مع الفلاحين وان يأخذ بالحسبان على الدوام مزاجهم وان يدافع عن مصالحهم. لقد علمنا لينين انه بدون الصلة مع الفلاحين لا يمكن ان يكون هناك نشاط شيوعي في البلدان الضعيفة التطور من الناحية الاقتصادية. فحيث لا وجود للطبقة العاملة او تكاد تكون غير موجودة يمكن للمنظمات الشيوعية ان تتكون بصورة رئيسية من ممثلي الفلاحين الثوريين الطليعيين.

ثانيا، ان الاداة الاساسية للتحول الاشتراكي للمجتمع هي الدولة الاشتراكية، كما بينت هذا تجربة الاتحاد السوفييتي. انها تنظم الجماهير وترص صفوفها وتحقق القيادة المنهاجية للبناء الاقتصادي والثقافي، وتضمن الدفاع عن مكتسبات الشعب الثورية. وفي ظروف الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية، تظهر فورا بعد الثورة الاشتراكية ديكتاتورية البروليتاريا — الدولة الاشتراكية للعمال والفلاحين، والدور القيادي فيها يعود للطبقة العاملة. وفي البلدان المتحررة من التبعية الاستعمارية، يمكن في البدء تأسيس دولة

الديموقراطية الوطنية ، يكون اساسها السياسي تحالف جميع القوى التقدمية في البلاد .

ثالثا ، في مجرى بناء الاشتراكية يجب ان يصفّى التخلف الاقتصادي في البلاد . ولهذا الغرض من الضروري تأسيس صناعة ضخمة ملك للدولة — اس اسس الاقتصاد الاشتراكي — ، واعادة البناء التكنيكي والتحويل التدريجي للاقتصاد الزراعي على الاسس الاشتراكية ، اي تأسيس المزارع الكبرى الجماعية ، وبصورة جزئية الحكومية ايضا ، القائمة على احدث منجزات العلم والتكنيك ، بدلاً من استثمارات الفلاحين الصغيرة المتخلفة شبه البائسة ذات الادوات البدائية : ان التحويل الاشتراكي للاقتصاد الزراعي هو مهمة هامة معقدة بصورة خاصة في ظروف البلدان الضعيفة التطور اقتصاديا ، البلدان الفلاحية في الاساس . انه مرتبط كذلك بالتصفية التامة للملكية الاقطاعية والرأسمالية للارض ، اذا لم يكن هذا قد حقق في مجرى الثورة التحررية الوطنية والاصلاحات الديموقراطية التي تلتها ، وتقام مكان هذه الملكية ، الملكية العامة ،

الاشتراكية للارض . ان هذه الاجراءات مجتمعة تقوّض بصورة حاسمة والى الابد تأثير الرجعيين من الاقطاعيين وزعماء القبائل على جماهير الفلاحين .

رابعا ، الشرط الضروري لانتقال البلدان المتخلفة سابقا الى الاشتراكية هو الثورة الثقافية. ان بناء المجتمع الجديد، الاشتراكي، يتطلب الوعي السياسي الرفيع عند الشعب بأسره. فالاقتصاد الاشتراكي المعقد القائم على احدث التكنيك، على العلم الطليعي، يقتضي وجود العمال المتعلمين ذوي الاعداد التكنيكي ، والعديد من الاختصاصيين ذوي الكفاءات الرفيعة . ان هاتين المهمتين لا يمكن حلهما إلا في ظروف ثقافة الشعب عامة ، عن طريق انشاء شبكة واسعة من مدارس التعليم العام والاختصاصي ، والمؤسسات العلمية ، وكذلك تأسيس منظومة للتنوير السياسي واسعة التنظيم . وتتسم باهمية خاصة كبيرة دراسة النظرية الماركسية ـ اللينينية التي هي الاساس العلمي لقيادة بناء الاشتراكية والشيوعية .

واخيرا ، من اجل انتصار الاشتراكية في البلدان الضعيفة التطور اقتصاديا ، حيث تبقى موجودة،

كقاعدة عامة، بقايا الشقاق، واحيانا العداء ايضا بين مختلف الاقوام والقبائل، من الضروري رص صفوف جميع الاقوام والقبائل حول الحزب الماركسي الثوري والدولة الاشتراكية (او دولة الديموقراطية الوطنية)، والتغلب على جميع النزاعات بين القوميات والقبائل ونسيان كل الحسابات القديمة والعداء (الذي كان يسعره المستعمرون بصورة مصطنعة للابقاء على سيطرتهم على الشعوب المظلومة)، واقامة المساواة التامة في الحقوق والصداقة الاخوية بين الشعوب والقبائل.

ان تحقيق جميع المهام المذكورة قضية ليست بالسهلة تتطلب قيادة حكومية وحزبية ماهرة ووعيا رفيعا وعملا متفانيا من جانب الجماهير الشعبية. ولكن جميع هذه المهام ممكنة الحل، اما النجاحات التي تنتظر البلدان الضعيفة التطور اقتصاديا في هذا الطريق، فانها نجاحات عظيمة. تشهد على هذا التجربة التاريخية الملموسة لجمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية، هذه التجربة التي سننتقل الآن الى دراستها.

اسس سياسة الحزب الشيوعي في فترة بناء الاشتراكية في جمهوريات آسيا الوسطى. قام نشاط الحزب الشيوعي الموجه لبناء الاشتراكية في آسيا الوسطى على البرنامج اللينيني لبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي. والاجزاء المكونة لهذا البرنامج هي تصنيع البلاد والتحويل الاشتراكي للاقتصاد الزراعي (عن طريق اشاعة التعاونيات الفلاحية)، والثورة الثقافية، وتعزيز الدولة الاشتراكية المتعددة القوميات. غير ان الحزب اذ انطلق من خصائص آسيا الوسطى وغيرها من مناطق الاتحاد السوفييتي الشرقية التي لم تمر في التطور الرأسمالي، طرح بعض المهمات الاضافية ذات الطابع المحلي.

ان برنامج بناء الاشتراكية ككل، الذي اخذ الحزب الشيوعي بتحقيقه في آسيا الوسطى، يتألف على الوجه التالي:

١ ـ وجه الحزب الضربة الاولى ضد مخلفات الحكم الاستعماري وبقايا الشوفينية الروسية. كان هذا ضروريا كل الضرورة لكسب ثقة الشغيلة في آسيا الوسطى ولتعزيز صداقتهم مع العمال والفلاحين الروس.

وفي الوقت نفسه ، اتخذت كل الاجراءات التي من شأنها تصفية النزاعات والخصومات بين الاقوام والقبائل في آسيا الوسطى . ولولا اقامة الصداقة الاخوية بين شعوب آسيا الوسطى وجميع شعوب الاتحاد السوفييتي لكان انتصار الاشتراكية امرا مستحيلا .

٢ ـ قام الحزب ، بصورة حازمة ، بتطوير نظام الدولة الاشتراكية القومية ، بغية القضاء على مخلفات عدم المساواة السياسية في الحقوق عند شعوب آسيا الوسطى . وقد تقرر هنا ان يتم ، في فترة قصيرة ، تأسيس الادارة والقضاء اللذين يصرفان امورهما باللغة المحلية والمكونين من اناس قريبين من السكان المحليين الكادحين ، بغية رص صفوفهم اكثر فاكثر حول الحزب والسلطة السوفييتية وجذبهم للمساهمة في بناء الاشتراكية .

٣ ـ وضع الحزب نصب عينيه مساعدة شعوب آسيا الوسطى للتغلب على تخلفها الاقتصادي في فترة تاريخية قصيرة واللحاق بشعوب الاتحاد السوفييتي الاخرى التي تعدتها سابقا . وجرى وضع برنامج واسع لبناء الصناعة

الاشتراكية الكبيرة في آسيا الوسطى ، وقيام منشآت الري ، واعادة البناء التكنيكي والتحويل الاشتراكي التدريجي للاقتصاد الزراعي ، وتطوير النقليات والمواصلات . وكان على تحقيق هذا البرنامج ان يسفر عن اشغال الاقتصاد الاشتراكي المتقدم مكان اقتصاد شعوب آسيا الوسطى شبه الطبيعي المتأخر الذي كانت لا تزال فيه البقايا الاقطاعية الكثيرة . وقرر ان يكون احد هذه التدابير القريبة المقبلة اجراء اصلاح للارض والري وتسليم الفلاحين الكادحين قسما ملحوظا من الارض ومياه الري الموجودة في ايدي الاقطاعيين والكولاك . وقرر كذلك القيام بالازاحة التدريجية للرأسمال الخاص من الصناعة .

٤ ـ وضع الحزب امامه كذلك هدف تحقيق الثورة الثقافية في آسيا الوسطى : تصفية امية السكان البالغين ، تطبيق التعليم العام للاطفال ، اعداد الملاكات (الكوادر) الاهلية العديدة من الاختصاصيين والعاملين الحكوميين والحزبيين ، بعث الفن الوطني ودفعه الى الامام ، تطوير العلم ، اقامة منظومة عصرية لوقاية

الصحة . وسلك الحزب طريق التنوير السياسي الواسع للشعب ، الامر الذي قرر من اجله انشاء شبكة من المدارس والحلقات السياسية ، واصدار مؤلفات كلاسيكيي الماركسية - اللينينية ومطبوعات ماركسية اخرى باللغات المحلية.

٥ - انطلاقا من الخصائص الاجتماعية والمعيشية في آسيا الوسطى ، وضع الحزب امامه مهمة التوصل الى تحرير المرأة تحريرا حقيقيا ، لانه يستحيل وجود الحرية حيث نصف السكان مظلوم ومستعبد . وخاض الحزب نضالا للقضاء على العادات والتقاليد القديمة الضارة المهينة للمرأة ، ولجذب نساء قوميات آسيا الوسطى للعمل في الهيئات الحكومية وفي الصناعة والمدارس وغيرها من المؤسسات الثقافية .

كان على هذا البرنامج من التدابير التي اجراها الحزب الشيوعي في آسيا الوسطى ان يضمن نهوضا حادا في الاقتصاد الوطني والثقافة ، ويؤمن سكان آسيا الوسطى ، وقبل كل شيء الفلاحين ، برفع مستوى الحياة المادي وبجميع الحريات الديموقراطية . ولذا

فان برنامج بناء الاشتراكية في آسيا الوسطى استجاب للمصالح الحيوية الاكثر جذرية عند اوسع الجماهير الشعبية. وضمن البرنامج تعزيز تحالف العمال والفلاحين وصداقة شعوب الاتحاد السوفييتي. وأخذ السكان الكادحون في آسيا الوسطى يلتفون بصورة اوثق فاوثق حول الحزب الشيوعي والسلطة السوفييتية.

وكان على هذا البرنامج في الوقت نفسه ان يؤدي الى الاستعاضة عن الملكية الخاصة لوسائل الانتاج بالملكية الاشتراكية، والى القضاء على استثمار الانسان للانسان، وبالتالي الى تصفية الطبقات المستثمرة — الاقطاعيين المحليين، البرجوازية الروسية والمحلية، بما في ذلك فئة الكولاك الكثيرة العدد. وكان على هؤلاء الناس جميعا ان ينتقلوا الى حياة العمل، بدلا من استثمار عمل الغير. ان هذا قد اثار القلق والاستياء ليس فقط عند الاقطاعيين المحليين وبقايا العناصر المستعمرة (موظفي القيصر السابقين والرأسماليين الروس، الذين بقوا ليعيشوا في آسيا الوسطى بعد الثورة)، وانما ايضا عند اوساط معينة من البرجوازية الوطنية.

ان قسما ملحوظا من البرجوازية الوطنية في آسيا الوسطى ، لا سيما البرجوازية الصغيرة ، اقتنع نحو هذا الوقت بمناعة السلطة السوفييتية وأخذ بالتكيّف معها . لا بل ان ممثلين كثيرين للبرجوازية المحلية والمثقفين البرجوازيين المحليين استطاعوا التسرب الى صفوف الحزب الشيوعي . وهؤلاء الناس ، اذ اعترفوا بالاشتراكية بالكلام ، ناضلوا عمليا من اجل بقاء الملكية الخاصة للارض والمياه وللمؤسسات الصناعية وقاموا ضد سياسة التصنيع . وافصحوا عن آرائهم مؤيدين الانطواء القومي ومناهضين الصداقة والعون المتبادل بين شعوب الاتحاد السوفييتي . وطالب بعضهم بالمحافظة على النظام القبلي القديم وسلطة زعماء العشائر واستعباد المرأة ، مصورين كل هذه المخلفات الرجعية للماضي السحيق بانها « تقاليد قومية » لشعوب آسيا الوسطى . ووجد اناس انكروا وجود الطبقات والنضال الطبقي في آسيا الوسطى معلنين ، على سبيل المثال ، بانه « لا وجود في طاجيكستان بوجه عام للكولاك والبايات ، ولا فقراء ومتوسطين ، وانما

يوجد ابناء موحدون للشعب الطاجيكي » . وقيل هذا حيث كان الاقطاعيون والبايات قبل الثورة يأخذون من الفلاحين ما لا يقل عن ٥٠ ٪ من المحصول !

كانت هذه جميعها نزعات مختلفة للتيارات الاشتراكية المزيفة للبرجوازية الصغيرة، على شاكلة تلك التي كان ماركس وانجلس قد فضحاها في «بيان الحزب الشيوعي » قبل اكثر من مئة سنة . لقد حاول انصار هذه الآراء الخاطئة محاولة ساذجة هي توحيد ما لا يقبل التوحيد ـ الاشتراكية مع الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ومع اشكال الاقتصاد المتخلفة . وفي الواقع ، فان الاقتصاد البضاعي الصغير وخصوصا الاقتصاد الرأسمالي الخاص لا يمكنه التطور بجانب الاقتصاد الاشتراكي إلا في المراحل الاولى من الفترة الانتقالية . وفيما بعد ، فانه سوف يصطدم لا محالة بالعلاقات الإشتراكية النامية وعليه ان يخلي لها المكان كليا . ولا يقل خطأ وضررا انكار وجود الطبقات والنضال الطبقي في المجتمع المعاصر . فان اصحاب هذه « النظرية » حاولوا ، في جوهر الامر ، الدفاع بشعار مزيف، شعار « وحدة

الشعب » عن المستغلين والنظم الاستغلالية التي تنزل الخراب بالفلاحين الفقراء .

ان تحقيق برنامج البرجوازية الوطنية الصغيرة كان سيؤدي حتما الى الابقاء في آسيا الوسطى على الاقتصاد الفلاحي والحرفي الصغير المتأخر ، الى الابقاء على الاستثمار والبؤس والمستوى الثقافي المنخفض عند الجماهير الشعبية . ولهذا ، فان الحزب الشيوعي لم يستطع قبول مطالب البرجوازية الوطنية في آسيا الوسطى ، على الرغم من ان هذه المطالب كانت مقنعة بقناع « اشتراكي » . لقد بينت التجربة التاريخية بان الوفاء للاشتراكية العلمية ، اشتراكية ماركس وانجلس ولينين ، هو وحده الذي ضمن التغلب التام على التخلف وأمن انتصار الاشتراكية في آسيا الوسطى .

وفي الوقت نفسه ، انتهج الحزب الشيوعي والحكومة السوفييتية سياسة مرنة حيال البرجوازية الوطنية المحلية وحتى حيال الاقطاعيين . فقد سمح بالعمل في الجهاز الحكومي والاقتصادي لممثلي هاتين الطبقتين البعيدي النظر المتفهمين للقوة المنيعة والطابع الشعبي الحقيقي

للسلطة السوفييتية والذين ابدوا رغبة صادقة في التعاون معها بشرف واخلاص. وشغل هؤلاء الناس ، بمقدار كفاءاتهم ، مركزا معتبرا وبعضهم مركزا مرموقا في المجتمع السوفييتي . وجذبت بصورة واسعة للعمل فئة المثقفين الاهليين القديمة. بيد ان قسما ملحوظا من الاقطاعيين المحليين والتجار والكولاك سلك طريق مناهضة السلطة السوفييتية والحزب الشيوعي ، مناهضة الاشتراكية. ان بناء الاشتراكية في آسيا الوسطى قد جرى في جو من النضال الطبقي العنيف.

تعزيز المنظمات الحزبية المحلية. كان التعزيز الفكري والتنظيمي للمنظمات الحزبية المحلية المرتبطة ارتباطا وثيقا بالجماهير الواسعة من الشغيلة شرطا من الشروط الاساسية لبناء الاشتراكية في آسيا الوسطى.

بغية قيادة بناء الاشتراكية في آسيا الوسطى بصورة افضل ، ومن اجل التطبيق الخلاق لاسس سياسة الحزب على الظروف المحلية الفريدة من نوعها ، اسست هيئات خاصة ، حزبية وحكومية هي : اللجنة التركستانية لحكومة جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية

السوفييتية (١٩١٩ – ١٩٢٢) ، ومكتب تركستان في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (١٩٢٠ – ١٩٢٢) ، ومكتب آسيا الوسطى في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (١٩٢٢ – ١٩٣٤) .

في السنوات الاولى بعد ثورة اكتوبر ، كان عدد الشيوعيين المحليين ، من القوميات الاصلية ، قليلا في المنظمات الحزبية الفتية في آسيا الوسطى ، الامر الذي صعّب من صلة الحزب بالجماهير الواسعة من الشغيلة في آسيا الوسطى .

لقد اولى الحزب الشيوعي اهمية كبيرة لجذب افضل ممثلي الشغيلة من قوميات آسيا الوسطى الى صفوفه . وجذب الى صفوف الحزب بالدرجة الاولى العمال المحليون ، بيد انهم كانوا اقل كثيرا من ان يضمنوا النمو السريع الكافي للملاكات الحزبية الاهلية . ولذا قرر في المؤتمر الثالث عشر للحزب وضع شروط مسهلة لقبول الاعضاء في الحزب من الفلاحين والاجراء الزراعيين والحرفيين في اناى الجمهوريات والمقاطعات الشرقية ، بما في ذلك تركستان وبخارى وخوارزم .

وجرى تنظيم فترات حزبية خاصة تمتد اسبوعا او اسبوعين لقبول العمال والاجراء الزراعيين والفلاحين الفقراء المنحدرين من القوميات المحلية في الحزب. وقد توجهت الى الاماكن النائية جدا لجان خاصة قامت بشرح سياسة الحزب الشيوعي والحكومة السوفييتية، ودرست قوام النشطاء من القوميات المحلية وجذبت الى الحزب اكثر العاملين استعدادا ومقدرة. ونتيجة لهذا العمل العنيد المديد تغير تغيرا جوهريا التركيب القومي للمنظمات الحزبية في آسيا الوسطى. ففي عام ١٩٣٠، بلغ مجموع الشيوعيين من القوميات المحلية ٥٩,١ ٪ من عداد اعضاء المنظمات الحزبية في آسيا الوسطى.

ان انتماء شغيلة القوميات الشرقية الى الحزب بصورة واسعة قد اتسم بأهمية تاريخية كبرى، وكان دليلا على نجاح السياسة القومية التي انتهجها الحزب الشيوعي، وضمن للحزب اقامة صلات لا تنفصم عراها باوسع الجماهير الكادحة في آسيا الوسطى. ولكن في الوقت نفسه، فان هذه الظاهرة ولدت صعوبات معينة.

فالشيوعيون الجدد من القوميات المتخلفة في السابق كانوا اميين بالاجماع تقريبا وغير مهيئين سياسيا ، وغالبا ما كان وعيهم مبلبلا بمختلف الاوهام الدينية والمخلفات البطريركية (الابوية) العشائرية . ولذا تأتى على المنظمات الحزبية بذل الكثير من الاهتمام والجهود لرفع المستوى الثقافي عند الشيوعيين الجدد وتربيتهم تربية ماركسية - لينينية . وكانت المنظمات الحزبية توصي احيانا حتى بالحد الموقت من القبول في الحزب الى ان يجرى العمل التربوى الضروري مع جميع الشيوعيين الجدد الذين تم قبولهم سابقا .

بالدرجة الاولى ، تم تنظيم تعليم الشيوعيين . وانشئت في المناطق الريفية مدارس سياسية متنقلة عديدة ، آجال الدراسة فيها قصيرة و تعلم على اساس منهاج خاص ومكيف طبقا للظروف المحلية ، ومزودة بالكتب المدرسية باللغات القومية . وكانت مثل هذه المدرسة تحط الرحال في القرية وتعمل خلال شهر قائمة بتعليم الشيوعيين المحليين والنشطاء من غير الحزبيين ، ثم ، بعد انهاء المنهاج ، تنتقل الى قرية اخرى. وعلاوة

على هذا ، انشئت في القرى حلقات التثقيف السياسي .

لقد انتشر هذا العمل بصورة واسعة جدا في العقد الرابع عندما اسست في كافة جمهوريات آسيا الوسطى مؤسسات دراسية حزبية عليا ــ الجامعات الشيوعية ــ وشبكة المدارس والحلقات الحزبية الدائمة . ففي جمهورية تركمانيا الاشتراكية السوفييتية ، مثلا ، تعلم عام ١٩٣٧ في شبكة التثقيف الحزبي اكثر من خمسة آلاف شيوعي وعدد كبير من اللاحزبيين .

ونتيجة للعمل الكبير والمساعدة الدائمة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي) في عامة الاتحاد السوفييتي التي ارسلت اكثر من مرة الى آسيا الوسطى المدرسين والدعاة المجربين ، تسنى في اواسط العقد الرابع تقريب مستوى الثقافة العامة والاعداد الفكري النظري عند الشيوعيين في آسيا الوسطى من المستوى العام في الحزب بأسره ، وانشاء ملاكات حزبية اهلية متعددة مجربة ومهيئة تهيئة حسنة. لقد كان هذا انتصارا حاسما للمنظمات الحزبية المحلية وللحزب ككل.

وفيما بعد ، ازداد تنشيط هذا العمل . وفي الوقت الحاضر ، يتعلم سنويا في آسيا الوسطى في شبكة التثقيف السياسي اكثر من مائتي الف من الشيوعيين والشغيلة اللاحزبيين . اما المستوى النوعي فيدل عليه مجرد واقع ان حوالي ٥٠ ٪ من الدعاة لديهم اما التحصيل العالي او التحصيل العالي غير التام . وتملك التحصيل العالي كذلك الاغلبية الساحقة من العاملين الحزبيين القياديين . ان النطاق الواسع للعمل السياسي التثقيفي والنضال العنيد لرفع مستوى الاعداد النظري للملاكات الحزبية قد ضمنا بناء الاشتراكية والانتقال الى بناء الشيوعية على نطاق واسع .

٤. شعوب آسيا الوسطى تحوز على نظام دولتها القومية الاشتراكية

البناء السوفييتي في تركستان في سنوات ١٩٢٠ — ١٩٢٤. كانت جمهورية تركستان منذ لحظة تأسيسها في عام ١٩١٨ دولة اشتراكية . وفي سنوات ١٩٢٠ —

١٩٢٤ ، أسست هناك في كل مكان تقريبا السوفييتات الريفية والمحاكم الشعبية المتكونة من ابناء القوميات المحلية الذين يعرفون معرفة حسنة اللغات والتقاليد والعادات المحلية . وأخذ ممثلو السكان المحليين يؤلفون الاغلبية في هيئات السلطة . مثلا ، كان بين ٥٥٥ مندوبا لمؤتمرات السوفييتات في مقاطعات تركستان عام ١٩٢٣ ، ٣٢٣ ممثلا عن القوميات المحلية وهم ١٢٨ كازاخيا ، ٩٨ اوزبكيا ، ٤٤ تركمانيا ، ٣٥ قراقالباقيا ، ١٨ قرغيزيا . وكان ممثلو القوميات المحلية في تركيب المؤتمر الثاني عشر لسوفييتات جمهورية تركستان الاشتراكية السوفييتية ذات الحكم الذاتي يؤلفون ٦٣ ٪ من المندوبين. وهكذا ، فان السلطة السوفييتية اصبحت سلطة شعبية حقا .

ان الحزب الشيوعي والحكومة السوفييتية ، إذ أسسا الهيئات الادارية والقضائية السوفييتية ، أخذا بعين الاعتبار الخصائص المحلية ، وقاما في عدة حالات بتنازلات لعادات السكان القديمة . مثلا ، بجانب المحاكم السوفييتية التي كانت تصدر احكامها بموجب

القوانين الجديدة ، حوفظ لوقت طويل على المحاكم الشرعية القديمة التي اعتاد السكان عليها والتي كانت تصدر احكامها بموجب الشريعة . وفي الوقت نفسه ، فان الذي لم يكن راضيا عن قرار قاضي الشرع كان بوسعه التوجه بدعواه الى المحكمة السوفييتية . وأخذت المحاكم الشرعية تفقد أهميتها تدريجيا من تلقاء نفسها . في البدء، تحولت الى محاكم تحكيم عادية ، ثم تلاشت بوجه عام . وبقيت في السنوات الاولى في بعض الاماكن وبصورة موقتة سلطة شيوخ العشائر .

وقد سهر الحزب والحكومة السوفييتية باهتمام على ان تراعى بدقة مساواة جميع الشعوب في الحقوق ، لا سيما الشعوب الصغيرة . لهذا الغرض جرى في حكومة الجمهورية التركستانية تأسيس القسم التركماني والقسم القرغيزي . وبموجب طلب التركمانيين الذين يؤلفون اغلبية السكان في مقاطعة ما وراء بحر قزوين تحولت هذه المقاطعة عام ١٩٢١ الى مقاطعة تركمانية .

وناضلت الحكومة السوفييتية والمنظمات الحزبية في تركستان نضالا حازما في سبيل تصفية مخلفات

الحكم الاستعماري . ففي سنوات ١٩٢٠ — ١٩٢٢ ، اجري اصلاح للارض والري اعيد بموجبه للسكان المحليين القسم الاكبر من الاراضي التي انتزعتها القيصرية منهم واعطتها للكولاك الروس النازحين . وترك للنازحين من الارض بمعدل ما كان يقدم للفلاحين المحليين . ونتيجة للاصلاح حصل الفلاحون المحليون على اكثر من ٣٠٠ الف ديسياتينه * من الارض . وفي الوقت نفسه ، فان الحكومة السوفييتية ، مراعاة منها للمشاعر الدينية عند السكان المحليين ، أبقت للهيئات الدينية الاسلامية اراضي الوقف .

لقد لعب اصلاح الارض والري في سنوات ١٩٢٠ — ١٩٢٢ دورا كبيرا جدا في جذب الفلاحين المحليين الى جانب السلطة السوفييتية . وبغية تنظيم الفلاحين الكادحين في آسيا الوسطى أسس اتحاد خاص يدعى اتحاد « الحراث » . وقد وحد هذا الاتحاد عناصر الفلاحين الاكثر ثورية — الفلاحين الفقراء والقسم المتقدم من الفلاحين المتوسطين . وكان هذا الاتحاد اتحادا

* الديسياتينه تعادل ١,٠٩ هكتار . المعرب.

جماهيريا ومنظمة متنفذة للغاية ؛ وكان يدير تنظيم العون المتبادل بين الفلاحين ، وساهم مساهمة نشيطة في انتخابات السوفييتات وفي كافة اجراءات الحزب والحكومة السوفييتية في ريف آسيا الوسطى . وفي تلك المرحلة بالذات، بدأ تنظيم التعاونيات الزراعية والنضال في سبيل تحرير المرأة .

كل هذا العمل جرى في جو من الصراع الطبقي الضاري . فاكثرية الاقطاعيين والبايات المحليين لم ترغب في التعاون مع السلطة السوفييتية ونظمت حربا مسلحة ضدها ، جارة وراءها قسما ضئيلا من الفلاحين . وأخذت العصابات المسلحة تهاجم القرى وتقتل انصار السلطة السوفييتية ، وتنهب المخازن الحكومية والتعاونية . ولكن ، لما كانت جماهير الفلاحين تدعم السلطة السوفييتية، فقد كانت هذه الحركات تخمد تدريجيا وتحولت الى لصوصية سياسية تافهة ، وفيما بعد صفيت تصفية نهائية تامة .

ولم يكن راضيا كذلك عن السياسة القومية للحزب والسلطة السوفييتية قسم من السكان الروس المصابين

بسم شوفينية الدولة العظمى ــ وهم من الموظفين السابقين والكولاك ــ ، وحتى بعض الافراد المتخلفين من الشغيلة . لقد شنّت الهيئات الحزبية والسوفييتية حزبا حاسمة لا رحمة فيها ضد الشوفينية . فقد احيل الشوفينيون النشطاء الى المحكمة وزجوا في السجن او نفوا من تركستان . وجرى بين الشغيلة الروس عمل توضيحي واسع . ونتيجة لهذا ، تم التغلب على شوفينية الدولة العظمى بين السكان الروس في آسيا الوسطى في السنوات الاولى من السلطة السوفييتية . وضمن هذا التعزيز اللاحق للصداقة بين شعوب آسيا الوسطى والشغيلة الروس .

التطور الاجتماعي والسياسي للجمهوريتين الشعبيتين السوفييتيتين في خوارزم وبخارى . كان الطريق التاريخي الذي اجتازته في سنوات ١٩٢٠ ــ ١٩٢٤ بخارى وخوارزم اكثر صعوبة وتعقيدا بكثير . فان هاتين الدولتين اللتين كان اساسهما السياسي في البدء التحالف الواسع للقوى التقدمية المعادية للاقطاعية والامبريالية ــ قوى الفلاحين ، والحرفيين في المدن ، والبرجوازية الوطنية ، التجارية منها والصناعية ، والطبقة العاملة

القليلة العدد ــ قد تحولتا تدريجيا الى دولتين من الطراز الاشتراكي ، واصبح اساسهما السياسي تحالف العمال والفلاحين والحرفيين في المدن ، الذي انضمت اليه الفئة التقدمية من البرجوازية الوطنية . وبما ان هاتين الجمهوريتين الشعبيتين السوفييتيتين كانتا الاولين في العالم ، اللتين جابهتهما مهام قريبة من المهام التي تجابه الآن دول الديموقراطية الوطنية ، فانه من الاهمية بمكان التوقف عند تجربتهما بمزيد من التفصيل .

ان مصالح العمال والفلاحين والحرفيين والاجراء الزراعيين في بخارى وخوارزم قد عبّر عنها الحزبان الشيوعيان اللذان ناضلا في سبيل طريق التطور اللارأسمالي لهاتين الجمهوريتين والانتقال الى الاشتراكية . وكان اتحادا الشبيبة الشيوعية (الكومسومول) مساعدين جيدين للحزبين الشيوعيين في بخارى وخوارزم . وعبّر عن مصالح البرجوازية الوطنية (في الاساس الاوزبكية) حزبا بخارى الفتاة وخيوه الفتاة . ان هذين الحزبين بذلا جهدهما لجذب بخارى وخوارزم الى طريق التطور الرأسمالي . وللتغطية والتمويه اعلن اعضاء هذين الحزبين

البرجوازيين في خوارزم وبخارى عام ١٩٢٠ عن حل حزبيهما وانتموا الى الحزبين الشيوعيين في هذين البلدين . ولكن عمليا فان حزبي بخارى الفتاة وخيوه الفتاة ابقيا سريا على تنظيمهما الحزبي وكان يعمل كالسابق في كل من الجمهوريتين حزبان – حزب شيوعي وحزب برجوازي :

ان اعضاء حزبي خيوه الفتاة وبخارى الفتاة بدخولهم في عداد حكومتي جمهوريتي خوارزم وبخارى ، ناضلوا بالكلام في سبيل الاشتراكية والصداقة مع روسيا الثورية ، وسموا انفسهم شيوعيين ، اما في الواقع فكانوا يعطلون الاصلاح الزراعي ، ويضعون العراقيل في وجه ممثلي الجماهير الكادحة للحيلولة دون اشتراكها في هيئات السلطة وكانوا بكل الوسائل يقمعون ويظلمون الاقليتين القوميتين (التركمانية والقرغيزية) . وفي الوقت نفسه ، وجد بين الشيوعيين في خوارزم وبخارى فرق « يسارية » لم تفهم ضرورة التعاون في الظروف القائمة بين جميع القوى المعادية للاقطاعية وطالبت بالتحولات الفورية على غرار روسيا ، على الرغم من

ان لينين كان قد اشار اكثر من مرة الى عدم جواز النقل الميكانيكي لتجربة روسيا الى الاطراف المستعمرة في السابق حيث يجب ان يوجه النضال ضد بقايا النظام الاقطاعي اكثر مما ضد الرأسمالية.

كان تاريخ خوارزم وبخارى السياسي في سنوات ١٩٢٠ – ١٩٢٤ عاصفا جدا من جراء المقاومة الضارية من جانب وجهاء الاقطاعية المعادين للثورة ، وتذبذب البرجوازية الوطنية ، وانعدام التجربة السياسية عند الفلاحين ، والاخطاء عند بعض القادة الشيوعيين . لننظر بتفصيل اكثر في تاريخ جمهورية خوارزم الشعبية السوفييتية .

لقد تمكن اعضاء خيوه الفتاة في خوارزم ، في اواسط عام ١٩٢٠ من الاستيلاء على القيادة في الحكومة وفي اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في خوارزم ، الذي اصبح مشلولا نتيجة لهذا . واستغل هؤلاء وضعهم قبل كل شيء لتصفية الحسابات القومية — فقد قتلوا بشكل غادر كثرة من الزعماء والمقاتلين التركمانيين . وقامت ردا على هذا انتفاضة واسعة من جانب القبائل

التركمانية . وبدأ اعضاء خيوه الفتاة في ذلك الوقت نفسه بالحد من الحريات الديموقراطية وعطلوا الانتخابات للهيئات السوفييتية . وأخذ رؤساء خيوه الفتاة يتواطأون جهارا مع الاقطاعيين الرجعيين . واصبح وجود السلطة السوفييتية في خوارزم محفوفا بالخطر .

في هذه اللحظة ، في شتاء عام ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ ، قام بدور القوى الثورية الرئيسية في خوارزم الجيش الثوري المحلي واتحاد الشبيبة الشيوعي في خوارزم . وبمساعدة القادة السياسيين المجربين الذين ارسلتهم الى خوارزم اللجنة التركستانية في حكومة جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية ، واستنادا الى الفلاحين والحرفيين ، اطاح الثوريون في خوارزم في ربيع عام ١٩٢١ بحكومة حزب خيوه الفتاة ، التي سلكت بصورة مكشوفة طريق خيانة الثورة ، وشكلوا حكومة جديدة تتألف في الاساس من ممثلي الطبقات الشغيلة . وبهذه المناسبة كتب احد قادة حزب خيوه الفتاة المطاح بهم ، بكراهية وبغض ، ان الاعضاء الجدد في حكومة خوارزم « لم يروا في حياتهم لا الغطاء ولا المخدة » ،

اي انهم انحدروا من افقر فئات المجتمع . ولكن الفئة التقدمية من البرجوازية الوطنية تعاونت مع الحكومة الجديدة .

ان تشكيل الحكومة الشعبية مكّن من حل المسألة القومية حلا سلميا واجراء تحويلات ديموقراطية . فقد دخل ممثلو التركمان في عداد الحكومة ، وفيما بعد انشئت المقاطعة التركمانية ذات الحكم الذاتي . وفي نفس الوقت ، بسبب ان التنظيم القبلي كان وطيدا عند تركمان خوارزم ، فان السوفييتات المحلية في المناطق التركمانية لم تؤسّس حسب المبدأ الاقليمي ؛ وانما حسب المبدأ العشائري (مجالس العشائر) . وقد صودرت الارض التي كانت تتبع في السابق لخان خيوه ووزعت على الفقراء من الفلاحين ، واسس « اتحاد الفلاحين القليلي الارض والذين لا ارض لهم » ، هذا الاتحاد الذي اصبح دعامة السلطة السوفييتية في الريف ، وشُرع ببناء المؤسسات الصناعية ، وافتتحت المدارس (بما في ذلك للنساء) ، وأخذت تصدر الصحف والمجلات التي كانت معدومة في السابق في خوارزم . وقدمت

حكومة جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية مساعدة كبيرة لتطوير الاقتصاد والثقافة في خوارزم .

وجرى في عام ١٩٢٣ تطهير الحزب الشيوعي في خوارزم وتعزيز السوفييتات والكومسومول والنقابات . ولكن ، مع الأسف ، فان قيادة الحزب الشيوعي في خوارزم في هذه المرة استولى عليها الشيوعيون « اليساريون» الذين لم يرغبوا في ان يأخذوا بالحسبان لا البرجوازية الوطنية حتى ولا الفلاحين الذين كانوا يؤلفون اكثر من ٩٠ ٪ من سكان الجمهورية . فقد اعلن مؤتمر سوفييتات خوارزم الرابع تحت تأثيرهم ، في تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٩٢٣ ، اعلن خوارزم جمهورية اشتراكية . وجرى الغاء الملكية الخاصة للارض قبل الاوان وبدون مراعاة الظروف المحلية ، وحرم من حق الانتخابات جميع رجال الدين وكل البرجوازية (بما فيها البرجوازية الصغيرة) . واتخذ مؤتمر السوفييتات الرابع كذلك قرارا خاطئا يقضي بمصادرة اراضي الوقف مما ادى في ظروف التأثير الديني القوي الى ابتعاد فئات واسعة من السكان عن الحكومة . والخطأ الاجسم

من ذلك ، كان رفع الضرائب على الفلاحين بصورة ملحوظة بغية الخروج من الصعوبات الاقتصادية التي كانت تعاني منها الجمهورية .

ان قرارات « اليساريين » المتهوّرة الطائشة صعّبت العملية الطبيعية لتحول ثورة التحرر الشعبية المعادية للاقطاعية الى ثورة اشتراكية . وقد ردت الطبقات المستثمِرة — الاقطاعيون الاوزبكيون ، والخانات التركمانيون ، ورجال الدين ، وقسم من البرجوازية الوطنية — ردت على قرارات المؤتمر بعصيان مسلح . وقد اولاها العطف في تلك اللحظة قسم كبير من الفلاحين . وكانت عصابات الاقطاعيين المسلحة تحاصر مدينة خيوه ، عاصمة الجمهورية . ولكن الجيش الثوري في الجمهورية الفتية ، المعزز بفصائل المتطوعين ، وكذلك بوحدات الجيش الاحمر في جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية التي لبّت الدعوة للمساعدة ، هزم العدو . بعد هذا بقيت خوارزم دولة اشتراكية للعمال والفلاحين ، ولكن القرارات الخاطئة التي اتخذها « اليساريون » المتعلقة باراضي الوقف

وزيادة الضرائب على الفلاحين وما الى ذلك ، جرى الغاؤها فورا ، مما ضمن للحكومة مساندة الفلاحين ؛ واعيد كذلك قيام التحالف مع البرجوازية الوطنية الصغيرة التي حصلت من جديد على الحق الانتخابي .

ان تاريخ جمهورية خوارزم في سنوات ١٩٢٠ ــ ١٩٢٤ يبين كم هو خطر على الدول الديموقراطية الفتية مثل هذا النوع من النهج التفاهمي عند البرجوازية الوطنية وكذلك اخطاء « اليساريين » التي تهدد بانفصال الحكومة عن الفلاحين ، الجمهور الاساسي من السكان . ان اصلاح هذه الاخطاء ، وتعزيز المنظمات الحزبية ، والخط السياسي الحذر الموجه لرص صفوف جميع القوى التقدمية ، هي وحدها فقط التي ضمنت انتقال خوارزم الاقطاعية المتأخرة فيما مضى الى طريق التطور اللارأسمالي ، طريق الاشتراكية .

ولقد سلكت جمهورية بخارى الشعبية السوفييتية نفس طريق التطور تقريبا . هنا ايضا ، جهدت الطبقة الاقطاعية التي اطاحت بها الثورة الى اعادة سيطرتها السابقة . فنشبت حرب اهلية ضارية انتهت بالهزيمة

التامة للقوى المعادية للثورة . وفي خريف عام ١٩٢٤ ، اعلن مؤتمر السوفييتات الخامس في بخارى ، مستندا الى دعم الشغيلة ، اعلن بخارى جمهورية اشتراكية .

على هذه الصورة، حتى نهاية عام ١٩٢٤، اصبحت جمهوريات آسيا الوسطى الثلاث كلها دولا اشتراكية متجانسة من حيث الطراز . وقد ضمن هذا امكانية الانتقال الى الاشتراكية ، لان الدولة الاشتراكية ، كما قيل اعلاه ، هي الاداة الاساسية لتحويل المجتمع تحويلا اشتراكيا ، وهي تنظم نفس عملية بناء الاشتراكية . ويتطلب تقدم البلاد في الطريق المؤدي الى الاشتراكية بدوره التغيير والاتقان التدريجي لجهاز الدولة وكامل نظام الدولة في اتجاه ديموقراطيته المطردة .

التطور اللاحق لنظام الدولة الاشتراكية القومية في آسيا الوسطى . كان تقسيم آسيا الوسطى السياسي ، في سنوات ١٩٢٠ — ١٩٢٤ ، موروثا عن الزمن القديم ، زمن الاقطاع والحكم الاستعماري . وكانت قوميات آسيا الوسطى موزعة بصورة عجيبة في الجمهوريات الثلاث ، مع العلم انه ما من قومية من هذه القوميات

كانت تشكل الاغلبية الساحقة في احدى هذه الجمهوريات. وهذا الوضع كان غير عادي بالطبع . ولهذا قام الحزب والحكومة السوفييتية ، عام ١٩٢٤ ، استجابة لرغبة الجماهير ، بانشاء جمهوريات ومقاطعات ذات حكم ذاتي جديدة في آسيا الوسطى، حسب السمة القومية .

ان تأسيس جمهوريات ومقاطعات قومية في آسيا الوسطى لم يعن تجزئتها واضعاف الصلة بين الشعوب التي تقطنها. بالعكس ، ان الصلات السياسية والاقتصادية والثقافية بينها قد نمت بلا انقطاع في عملية المساهمة المشتركة في بناء الاشتراكية . وكانت تنسق هيئات مؤلفة من ممثلي الجمهوريات مجتمعة النشاط السياسي والاقتصادي لجمهوريات آسيا الوسطى ، وهذه الهيئات هي مكتب آسيا الوسطى في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ، والاجتماع الاقتصادي في آسيا الوسطى ، وغيرهما من الهيئات. ولعب مكتب آسيا الوسطى الذي ضم قادة بارزين للحزب الشيوعي وابرز العاملين في المنظمات الحزبية المحلية ، لعب دورا كبيرا بوجه خاص في بناء الاشتراكية في آسيا الوسطى .

وقوام التطور اللاحق لنظام الدولة الاشتراكية القومية في آسيا الوسطى هو تأسيس الملاكات (الكوادر) الاهلية ، وما يسمى بـ« تأصيل» جهاز الدولة * ، وتعزيز السوفييتات الريفية والتوسيع التدريجي لحقوق الجمهوريات القومية والحقوق الديموقراطية للشغيلة .

ان اعداد الملاكات الاهلية و « التأصيل » اللاحق لجهاز الدولة كانا شرطا ضروريا للصلة المتينة بين الهيئات السوفييتية والجماهير الشغيلة ، ولهذا كانا موضع الاهتمام الخاص من جانب الحزب والحكومة السوفييتية . وجرى اعداد الملاكات الاهلية في جمهوريات آسيا الوسطى في مؤسسات دراسية خاصة ــ الجامعات الشيوعية ، والمدارس السوفييتية والحزبية ــ ، وكذلك عن طريق ترفيع ممثلي القوميات المحلية لاشغال المناصب الادارية ، من بين المخلصين لقضية الاشتراكية ، ولو انهم غالبا ما كانوا غير مهيئين تهيئة كافية .

---

* يتلخص جوهر «التأصيل» في الترقية الواسعة لممثلي القوميات الاصلية المحلية لاشغال المناصب في الهيئات الحكومية والحزبية والاقتصادية ونقل تصريف الامور الى اللغات القومية. وكان على جميع العاملين. الروس ايضا دراسة اللغة القومية.

وقد جرى اعدادهم في مجرى العمل نفسه من قبل اناس ذوي خبرة اكبر من بين العاملين المحليين او الروس .

ان « تأصيل » جهاز الدولة وترقية الملاكات الاهلية جريا في البداية ، في العقد الثالث ، في جو من النضال السياسي العنيف . فمن جهة ، حاول بعض العاملين الاوروبيين تعطيل «التأصيل » بحجة « عدم تهيئة » الملاكات الاهلية ، وفي الوقت نفسه ، لم يرغبوا في الانشغال بتهيئتها ؛ ومن جهة اخرى ، طالب بعض القوميين البرجوازيين المحليين الذين تسربوا الى الهيئات السوفييتية وحتى الحزبية ، بـ « التأصيل ١٠٠ ٪ » على الفور ، دون الأخذ بعين الاعتبار للامكانيات الواقعية ومصالح بناء الاشتراكية . ان كلا هذين الانحرافين أضرا بقضية تقريب الامم وتعزيز الصداقة بينها وبناء الاشتراكية . ولذا قام الحزب بفضح وتحطيم هذين الاتجاهين الضارّين .

وكان تعزيز السوفييتات الريفية مهمة بالغة الاهمية . فالقضية هي انه حتى نهاية العقد الثالث والسلطة المحلية

في بعض الاماكن النائية ، وفي اعماق السهوب والمناطق الجبلية كانت ، في جوهر الامر ، لا تزال باقية في ايدي زعماء القبائل الاقطاعيين وعمد الريف القدامى. فالاقطاعيون والكولاك ، اذ استغلوا بقايا نفوذهم السابق على الشعب ، نصّبوا صنائعهم في السوفييتات ، في بعض حالات ، وعرقلوا تحقيق السياسة السوفييتية في المطارح. ومثل هذه الهيئات المحلية ، حيث كان يتربع الاقطاعيون والكولاك ويقترفون اعمالهم السوداء ، حطّت من شأن السلطة السوفييتية في اعين الشعب ، وخلقت الاستياء . وقد خاض الحزب والحكومة السوفييتية ، استنادا الى اتحاد « الحراث » والكومسومول، نضالا عنيدا اثناء الانتخابات الى السوفييتات ضد نفوذ الخانات والبايات ، وضد تغلغل صنائع البايات في السوفييتات . والوسائل الرئيسية كانت العمل السياسي التوضيحي الواسع اثناء الحملات الانتخابية وزيادة نشاط الفقراء في الانتخابات . وقبيل نهاية العقد الثالث ، تطهرت السوفييتات المحلية من العنصر المعادي وتعززت .

ان نجاحات شعوب آسيا الوسطى السياسية والاقتصادية ساعدت على التوسيع التدريجي لحقوق الجمهوريات القومية في آسيا الوسطى . فقد تحولت جمهوريتا طاجيكستان وقرغيزيا ذاتا الحكم الذاتي الى جمهوريتين متحدتين ، وتحولت مقاطعة قراقالباقيا ذات الحكم الذاتي الى جمهورية ذات حكم ذاتي . ومنذ عام ١٩٣٦ ، توجد في آسيا الوسطى اربع جمهوريات متحدة - جمهورية اوزبكستان ، جمهورية تركمانيا، جمهورية طاجيكستان ، جمهورية قرغيزيا وجمهورية قراقالباقيا ذات الحكم الذاتي الداخلة ضمن نطاق جمهورية اوزبكستان الاشتراكية السوفييتية . وكل جمهورية من الجمهوريات تملك دستورها الموضوع على اساس دستور الاتحاد السوفييتي لعام ١٩٣٦ ، ولكن مع الأخذ بعين الاعتبار الخصائص المحلية . و ضمنت هذه الدساتير الاشتراكية لشغيلة الاتحاد السوفييتي اوسع الحقوق الديموقراطية .

ولقد وُسعت بصورة ملحوظة حقوق جمهوريات

آسيا الوسطى، شأنها شأن الجمهوريات المتحدة الاخرى،

في سنوات ١٩٥٣ ـ ١٩٦٣. فتحت تصرف حكومات هذه الجمهوريات يوجد اكثر من ٩٨ ٪ من صناعة آسيا الوسطى . وقد منحت حقوق واسعة في مجال التشريع والميزانية ، وفي قضايا العمل والاجور ، وفي قضية تخطيط الانتاج الصناعي والزراعي في الجمهوريات، الخ : ؟

ويدخل رؤساء مجالس الوزراء في الجمهوريات المتحدة في عداد مجلس الوزراء في الاتحاد السوفييتي ، ورؤساء المحاكم العليا في الجمهوريات في عداد المحكمة العليا في الاتحاد السوفييتي . ويجري توفيق التطور المبرمج للاقتصاد الوطني في الاتحاد السوفييتي ككل مع فتح المجال لاقصى حد لمبادرة الهيئات الجمهورية والمحلية ، ومع الفعالية المبدعة الواسعة عند جماهير الشغيلة .

ان الديموقراطية باوسع مظاهرها والمراعاة الشاملة لمصالح وحاجات كل شعب بالتوافق مع مصالح الدولة قاطبة هما اساس مناعة الدولة الاشتراكية المتعددة القوميات. ان تأسيس وتعزيز نظام الدولة القومية

الاشتراكية عند شعوب آسيا الوسطى ضمنا تلاحم جماهير الشغيلة حول السلطة السوفييتية ، وتعزيز صداقة الشعوب، وكانا شرطا من اهم شروط انتصار الاشتراكية في جمهوريات آسيا الوسطى .

٥. كيف صفي التخلف الاقتصادي في آسنيا الوسطى

أ) معونة الجمهوريات الشقيقة في الاتحاد السوفييتي

ان انتصار ثورة اكتوبر الاشتراكية وقيام السلطة السوفييتية ضمنا الحرية والمساواة في الحقوق والسيادة الوطنية لكافة شعوب البلاد السوفييتية ، بما في ذلك شعوب آسيا الوسطى المظلومة في السابق . ولقد رسخ هذا بقيام وتطور نظام الدولة الاشتراكية القومية عند هذه الشعوب . ولكن جميع هذه المكاسب التاريخية

العظيمة لم تعن بعد الحل التام للمسألة القومية ، ولم تؤد الى قيام المساواة الفعلية للشعوب .

ففي واقع الأمر ، أكان من الممكن التحدث عن المساواة الفعلية لشعوب بلادنا ، لو ان جمهوريات الشرق السوفييتي بقيت كالسابق غير مالكة لصناعتها ، ولو ان اقتصادها الزراعي بقي بدائيا وبقي سكانها اميين ؟ أكان بوسع شعوب آسيا الوسطى وشعوب جمهوريات اخرى في الشرق السوفييتي ان تستفيد كليا في هذه الظروف من الحقوق والامكانيات التي وفرتها لها المساواة القومية في الحقوق ؟ بالطبع ، لا . ونظرا لتخلف الاقتصاد العام ، كان من المستحيل رفع مستوى حياة شعوب آسيا الوسطى بصورة ملحوظة الى حد ما ، على الرغم من ان الحكومة السوفييتية قامت فورا باتخاذ كل ما في وسعها اتخاذه في تلك الظروف الشاقة لتحسين وضع فلاحي آسيا الوسطى الذين انزل بهم الخراب المستعمرون والاقطاعيون والحرب الاهلية القاسية .

ان الدولة البرجوازية تقصر الأمر ، في احسن الحالات ، على الاعلان الرسمي لمساواة الشعوب.

اما في ظل الاشتراكية ، فان الأمر يختلف تماما ـ فالدولة الاشتراكية تولي الاهتمام الرئيسي لكي تضمن لجميع الشغيلة الاستفادة الفعلية من الحقوق الممنوحة لهم .

احراز المساواة الفعلية لشعوب الاتحاد السوفييتي ـ ها هي المهمة التي وضعها الحزب الشيوعي اللينيني نصب عينيه.

ولكن هذه المهمة كانت معقدة وصعبة للغاية . فلكيما يصبح السكان البؤساء والاميون سكانا ميسورين ومثقفين كان يلزم قبل كل شيء تصفية التخلف الاقتصادي في آسيا الوسطى ، اي اكتشاف ثرواتها ، وبناء مئات المعامل والمصانع والمحطات الكهربائية ، وتزويد الملايين العديدة من الفلاحين بالعتاد الزراعي العصري وبالاسمدة ، وتدريب الفلاحين على استخدام احدث منجزات التكنيك الزراعي ، وشق عشرات اقنية الري الجديدة ، بغية التغلب على العوز الكبير الى الارض . وكل هذا تطلب التوظيفات الهائلة وجيشا كاملا من الاختصاصيين ذوي الكفاءات الرفيعة . من

أين كان لشعوب آسيا الوسطى الضعيفة التطور من الناحيتين الاقتصادية والثقافية ان تحصل على كل هذا ؟

ان حل هذه المهمة في فترة تاريخية قصيرة كان ممكنا فقط على اساس المعونة الاخوية من الشعوب الاخرى في الاتحاد السوفييتي ، التي كانت قد سارت شوطا الى الامام في تطورها الاجتماعي والاقتصادي . وقد تبنى الحزب الشيوعي هذا الحل بالذات ، النابع من جوهر النظام الاشتراكي نفسه .

والخاصة التاريخية لتطور جمهوريات آسيا الوسطى كانت دخولها في دولة اتحادية موحدة – اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية – جنبا الى جنب مع جمهوريات اشتراكية اكثر تطورا ، منها روسيا واوكرانيا وغيرهما . وهذا الواقع خلق ظروفا اكثر ملاءمة لتقديم اوسع مساعدة شاملة لشعوب آسيا الوسطى من جانب الطبقة العاملة الروسية وغيرها من الطبقات العاملة في الامم الاكثر تطورا في الاتحاد السوفييتي .

وقدمت هذه المساعدة لجمهوريات آسيا الوسطى

خلال كامل فترة بناء الاشتراكية ، وبمختلف الاشكال : السياسية ، المالية ، التكنيكية ، الثقافية .

وتجدر الاشارة الى ان تقديم هذه المعونة تطلب تضحيات وحرمانات معينة من جانب شعوب الاتحاد السوفييتي الأكثر تطورا في ذلك الوقت . فمن الضروري الأخذ بالحسبان ان البلاد السوفييتية بأسرها كانت آنذاك فقيرة ، ومتخلفة تخلفا ملحوظا عن البلدان الرأسمالية المتقدمة من حيث تطورها الاقتصادي . ولكن الطبقة العاملة الروسية قدمت هذه التضحيات تحقيقا لواجبها الاممي .

واتسمت باهمية كبيرة المعونة المالية التي قدمتها الحكومة الاتحادية لآسيا الوسطى . فاذا كان رأسماليو الامة السائدة في العهد الاستعماري ، باستثمارهم الثروات الطبيعية ، يستنزفون الاموال الطائلة من المستعمرات والبلدان التابعة اقتصاديا ، حاكمين على سكان هذه البلدان بالبؤس والتخلف ، فان الوضع يتغير تغيرا جذريا في ظل الاشتراكية التي سمتها الراسخة هي الصداقة الاخوية والعون المتبادل بين الشعوب . ويدل على مقادير المساعدة المقدمة لآسيا الوسطى واقع ان

الاعانات المالية من الاتحاد في بعض السنوات بلغت ٨٠ ــ ٩٠ ٪ من قسم النفقات في ميزانيات بعض جمهوريات آسيا الوسطى . وكانت آسيا الوسطى تحصل ايضا من الجمهوريات الاخرى على مختلف الآلات والمعدات التكنيكية للمؤسسات الصناعية والاقتصاد الزراعي ، وعلى الاسمدة المعدنية واشياء كثيرة غيرها ؛ ان هذا ضمن التقدم التكنيكي السريع لجمهوريات آسيا الوسطى .

وارسل الحزب كذلك الى آسيا الوسطى القادة السياسيين المجربين والعديد من الاختصاصيين الماهرين من روسيا واوكرانيا وغيرهما من جمهوريات الاتحاد السوفييتي . ولقد حمل هؤلاء معهم الى آسيا الوسطى التجربة السياسية الهائلة ، التي كدسها الحزب الشيوعي ، ومنجزات العلم والثقافة الطليعيين . وجاء بعض هؤلاء الناس الى آسيا الوسطى بصفة مستشارين لوقت قصير نسبيا ، وعمل آخرون في الدوائر المحلية وفي المؤسسات بضع سنوات ، واخيرا ، فان الباقين ربطوا مصيرهم الى الابد بجمهوريات آسيا الوسطى . ووصل على

الاخص الكثير من العاملين المجربين الى آسيا الوسطى على اساس التعبئة الحزبية الخاصة التي جرت لتعزيز الملاكات الحزبية والسوفييتية في جمهوريات آسيا الوسطى . علاوة على هذا ، كان يرسل سنويا الى آسيا الوسطى عدد من الاختصاصيين – الاطباء والمدرسين والتكنيكيين والمهندسين – بموجب توزيع المتخرجين من المؤسسات الدراسية العليا والمدارس الثانوية المختصة في روسيا وغيرها من الجمهوريات الشقيقة . وتجدر الاشارة الى ان شغيلة آسيا الوسطى قابلوا مبعوثي الشعب الروسي الشقيق وغيره من الشعوب الشقيقة بامتنان كبير وترحاب حار. وكقاعدة عامة، فان الاختصاصيين الذين وصلوا الى آسيا الوسطى كانوا لا يعملون وحسب ؛ وانما يقومون باعداد الملاكات المحلية . وفي الوقت نفسه ، فان عددا كبيرا من الاوزبكيين والتركمانيين وممثلي الشعوب الاخرى في آسيا الوسطى كان قد ارسل للدراسة في المؤسسات الدراسية العليا والمدارس الثانوية ، وفي المؤسسات الطليعية في المدن المركزية من روسيا .

ونتيجة لهذه المساعدة الشاملة ، كانت وتائر التطور الاقتصادي والثقافي في جمهوريات آسيا الوسطى اعلى بصورة ملحوظة منها في جمهوريات الاتحاد السوفييتي الاكثر تطورا . مثلا ، ازداد المنتوج الصناعي الاجمالي في جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية السوفييتية من عام ١٩٣٢ الى عام ١٩٣٧ بمقدار ١٢٠,٥ ٪ ، اما في طاجيكستان فقد ازداد بمقدار ٢٦٦,٧ ٪ ؛ وازداد انتاج الطاقة الكهربائية في السنوات نفسها في جمهورية روسيا الاتحادية الى سبع مرات ، اما في طاجيكستان فقد ازداد الى ١٨,٧ مرة ؛ وازداد عدد الجرارات منذ عام ١٩٢٨ الى عام ١٩٣٧ في اوكرانيا الى ١٥,٥ مرة ، اما في اوزبكستان فازداد الى ٢٦ مرة ؛ وازداد عدد التلامذة في مدارس جمهورية روسيا الاتحادية عام ١٩٣٧ بالمقارنة مع عام ١٩١٤ الى ٣,٧ مرات اما في تركمانيا فازداد الى ٣٠,١ مرة ؛ ونما عدد الاطباء في جمهورية روسيا الاتحادية منذ عام ١٩١٣ الى عام ١٩٣٧ الى زهاء خمس مرات فقط ، اما في قرغيزيا فنما الى ٢١ مرة .

وهذه المساعدة الاخوية السخية لم تكن « احسانا » مهينا او عطاء « للاقارب الفقراء » . انها كانت مساعدة رفاقية متبادلة قائمة على واقع ان شعوب آسيا الوسطى ، اذ تتغلب على تخلفها بمساعدة الشعوب الاخرى في الاتحاد السوفييتي ، ستتمكن بدورها من المساهمة مساهمة اكبر في العمل المشترك . وبالفعل ، فبمقدار تطورها الاقتصادي أخذت جمهوريات آسيا الوسطى تساهم بقسط متزايد في بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي بأسره . وقد كانت الزيادة الملحوظة لانتاج القطن في آسيا الوسطى مكسبا هاما للغاية ، فبنتيجة هذه الزيادة احرز الاتحاد السوفييتي استقلاله في هذا المجال ، وكفت البلاد تقريبا عن شراء القطن من البلدان الرأسمالية . ونما في تركمانيا نموا سريعا انتاج النفط والمنتوجات النفطية الضرورية بصورة ملحة للصناعة السوفييتية النامية . وكانت تباع في الخارج كمية كبيرة من فرو استرخان آسيا الوسطى ، مما مكن من زيادة مشتريات الآلات اللازمة لاعادة البناء التكنيكي للاقتصاد الوطني في الاتحاد السوفيتي . ان المساعدة الشاملة والعون المتبادل

والتعاون في العمل بين كافة جمهوريات الاتحاد السوفييتي ساعدت في فترة تاريخية قصيرة جدا على تصفية عدم المساواة الفعلي لشعوب الاتحاد السوفييتي وضمنت تعزيز الصداقة بين كافة الامم السوفييتية .

ان المساعدة الاخوية التي تقدمها البلدان الاشتراكية لشعوب المستعمرات السابقة ، المتحررة من الظلم والمناضلة في سبيل تطورها الاقتصادي والثقافي المسرّع ، هي سنّة عامة للعملية التاريخية في عصرنا الراهن — عصر انهيار الرأسمالية وانتصار الاشتراكية على الصعيد العالمي . وهذه السنّة تجلّت بصورة ساطعة جدا في آسيا الوسطى.

وبعد ان تخطت الجمهوريات السوفييتية في آسيا الوسطى تخلفها الاقتصادي ، من حيث الاساس ، لم تعد لها حاجة الى مثل هذه المساعدة الواسعة ؛ وقامت طوعيا بتخفيض مقاديرها . مثلا ، رفضت جمهورية طاجيكستان الاشتراكية السوفييتية عام ١٩٣٩ الاعانات المالية المقدمة من ميزانية الاتحاد ، لان اقتصادها الخاص احرز في ذلك الوقت نجاحات ملحوظة ، وتمكنت

الجمهورية الفتية فيما بعد من ان تكفي نفسها بوسائلها الخاصة :

ونتيجة للتعاون العملي والمساعدة الرفاقية المتبادلة بين شعوب البلاد السوفييتية ، تم التذليل التام للتخلف الاقتصادي في آسيا الوسطى . وجمهوريات آسيا الوسطى نفسها تصدر الآن الى الجمهوريات الاخرى الشقيقة لا المنتوج الزراعي التقليدي وحسب ـ القطن ، الحرير ، الفواكه ، الفرو الاسترخاني ، وانما ايضا مصنوعات صناعية متنوعة .

لننظر الآن بتفصيل اكثر كيف جرى تخطي تخلف آسيا الوسطى في ميدان الصناعة والاقتصاد الزراعي .

ب) التصنيع الاشتراكي ونشوء الطبقة العاملة - الاهلية

التصنيع الاشتراكي في جمهوريات آسيا الوسطى .

ان الاشتراكية ، شأنها شأن اي نظام اجتماعي آخر ، تتطلب مستوى معينا من تطور القوى المنتجة او قاعدة مادية وتكنيكية

معينة . وهذه القاعدة بالنسبة للاشتراكية هي الصناعة الآلية الضخمة القادرة على تزويد الاقتصاد الزراعي ايضا بالآلات والاسمدة الاصطناعية .

في المراحل الاولى فقط من بناء الاشتراكية، يمكن لاقتصاد الفلاحين والحرفيين الصغير المتخلف تكنيكيا ان يبقى الاساس الاقتصادي للمجتمع . ولكن انجاز بناء الاشتراكية مستحيل بدون توفر الصناعة الكبيرة . ولهذا ، ففي البلدان التي لا تملك قاعدة صناعية متطورة الى حد كاف ، يتطلب بناء الاقتصاد الاشتراكي بكل تأكيد تحقيق التصنيع الاشتراكي . وتنفيذ هذه المهمة في الوقت الراهن يسهل بصورة حاسمة بفضل امكانية الحصول على اوسع مساعدة من الاتحاد السوفييتي وغيره من البلدان الاشتراكية العالية التطور. كما يمكن ان تتسم باهمية غير قليلة المساعدة المتبادلة والتعاون بين البلدان المتحررة التي يملك الكثير منها (مثلا ، بلدان افريقيا) المصادر الطبيعية الهائلة.

التصنيع الاشتراكي هو تأسيس الصناعة الكبيرة وبالدرجة الاولى الثقيلة (انتاج المعادن والطاقة

الكهربائية ، واستخراج النفط والغاز ، وصناعة الانشاءات الميكانيكية ، والصناعة الكيميائية ، الخ .) ، التابعة للدولة الاشتراكية، والتي تضمن اعادة بناء الاقتصاد الوطني باكمله على قاعدة التكنيك الآلي المتقدم.

كانت الصناعة في آسيا الوسطى ، كما قيل اعلاه ، ضعيفة التطور قبل الثورة . وعلاوة على هذا ، فقد تدمرت بصورة شديدة في سنوات الحرب الاهلية . ففي فرغانة وحدها ، احرقت العصابات المعادية للثورة ٥٦ مصنعا لحلج القطن .

ولم يتسن اعادة مستوى ما قبل الثورة في صناعة آسيا الوسطى إلّا على ابواب عام ١٩٢٨ . ولكن هذا كان مستوى بقعة متأخرة من اطراف روسيا . وكانت صناعة آسيا الوسطى لا تزال تقوم على وجه التقريب فقط بالتكييف الاولي للخامات الزراعية (حلج القطن الخام ، دباغة الجلود، غسل الصوف، الخ .). وكالسابق ، كانت جميع البضائع الصناعية تقريبا ، وخصوصا الآلات ، تستورد من الجمهوريات السوفييتية الاكثر تطورا .

ولهذا ، ففي البرنامج الخماسي الاول لتنمية الاقتصاد الوطني في الاتحاد السوفييتي ، جرى السير بخطوات ثابتة نحو التصنيع في آسيا الوسطى بغية تحويلها من بلد زراعي متخلف الى بلد صناعي زراعي متقدم .

وكانت الدراسة العميقة للمصادر الطبيعية في آسيا الوسطى شرطا هاما لتطورها الصناعي . فمنذ النصف الثاني من العقد الثالث ، انتشر هنا انتشارا واسعا عمل البعثات الجيولوجية وبعثات البحث عن الطاقة المائية، التي ساهم في اعمالها اناس من ابرز العلماء في الاتحاد السوفييتي. واتضح بالنتيجة ان آسيا الوسطى تمتلك احتياطات هائلة من الثروات الدفينة (النفط في تركمانيا ، الفلزات المعدنية العديدة في اوزبكستان وطاجيكستان وقرغيزيا ، وكثير غيرها) ، وكذلك مصادر لا تنضب من الطاقة المائية . وقامت هذه المعطيات مقام قاعدة علمية متينة لتخطيط التطور الصناعي في جمهوريات آسيا الوسطى .

ونتيجة للعمل الذي بذله السوفييتيون ، اسست في آسيا الوسطى صناعة اشتراكية عصرية كبيرة :

صناعة التعدين وتكييف المعادن ـ كومبينات (مجمعات) المعادن المتنوعة في طاجيكستان وقرغيزيا ، مصانع بناء الآلات الخاصة بالزراعة والنسيج في طشقند ، وعدد آخر من مصانع تكييف المعادن ومصانع الانشاءات الميكانيكية في اوزبكستان وغيرها من الجمهوريات ؛

صناعة الكيمياء ـ كومبينة تشيرتشيك الكيميائية الكهربائية الهائلة في اوزبكستان ، وكومبينة قره بوغاز لانتاج كبريتات الصوديوم في تركمانيا ، ومؤسسات كثيرة اخرى ؛

صناعة النسيج ـ كومبينتا النسيج في طشقند ودوشانبه ، وهما من اكبر مؤسسات هذا الطراز في الاتحاد السوفييتي؛ وعدد من معامل الغزل والحياكة ولف الحرير في إوزبكستان وتركمانيا وطاجيكستان وقرغيزيا ؛

صناعة النفط ـ بصورة رئيسية في تركمانيا الغربية ؛

صناعة الاغذية ـ مصانع كبرى للسكر في قرغيزيا ،

كومبينات اللحوم ومصانع المعلبات ومؤسسات كثيرة غيرها في كافة الجمهوريات .

وبني كذلك عدد من المحطات الكهربائية الكبيرة : محطة فرخاد الكهرمائية ومحطة قيرق قوم الكهرمائية على نهر سير- داريا (نهر سيحون) ، ومحطة غولوفنايا الكهرمائية على نهر الوحش ، وعدد غيرها . واعيد بناء مناجم الفحم ومصانع حلج القطن ومعاصر الزيت. وتطورت تطورا كبيرا صناعة البناء وصناعة الطباعة والصناعة الخفيفة (معامل الخياطة والاحذية والتريكو ، الخ.) .

وتجدر الاشارة كذلك الى انه ، بجانب تطوير الصناعة الكبيرة العصرية ، ابدى الحزب الشيوعي والحكومة السوفييتية اهتماما كبيرا بالحرفيين العديدين في مدن آسيا الوسطى . فقد جرى تنظيمهم في التعاونيات الحرفية وتزويدهم بالخامات ، ونظم تصريف المنتوج الجاهز . وبفضل مساندة الدولة ، بقيت وتطورت باطراد حرف قومية قديمة مثل صنع السجاد في تركمانيا ، والتطريز الفني على الحرير وحرفة التوشية بالذهب في

طاجيكستان واوزبكستان ، والحفر على الخشب والمرمر وصناعة الفخار والمجوهرات ، وانواع كثيرة غيرها من الحرف. ان التعاونيات الانتاجية المعاصرة في آسيا الوسطى هي ايضا مؤسسات اشتراكية — انها تقوم على الملكية الاجتماعية ، التعاونية لوسائل الانتاج، وهي مجهزة بالتكنيك الحديث .

لقد حطم الحزب بصورة حازمة مقاومة الاوساط الاقطاعية المحلية وبعض الاختصاصيين الروس المصابين بالشوفينية الذين حلموا بالابقاء على التأخر الصناعي في آسيا الوسطى وحاولوا « البرهنة » على عدم ضرورة وعدم فائدة تطور الصناعة في جمهوريات آسيا الوسطى.

نتيجة لتحقيق التصنيع الاشتراكي تغير اقتصاد آسيا الوسطى بصورة جذرية.

فقد حلت محل المؤسسات الخاصة القديمة شبه الحرفية مؤسسات الدولة الضخمة القائمة على احدث التكنيك : المعامل والمصانع والكومبينات . مثلا ، حتى في عام ١٩٣٨ ، انتجت ٢٩٤ مؤسسة كبيرة في تـ كمانيا ، بنيت او أعيد بناؤها كليا في ظل

السلطة السوفييتية ، ٩٤ ٪ من مجموع المنتوج الصناعي .

وظهرت في آسيا الوسطى مؤسسات مثل كومبينة تشيرتشيك الكيميائية الكهربائية الآنفة الذكر ، التي تنتج في السنة عشرات الوف الاطنان من الاسمدة المعدنية ، ومصنع طشقند لبناء الآلات الزراعية ، الذي يعمل فيه اكثر من خمسة آلاف عامل ومستخدم ، وكومبينة النسيج في طشقند ، التي يبلغ عدد العاملين فيها اكثر من سبعة آلاف انسان ، وغيرها . لقد تحولت مدينة طشقند الى مركز من اكبر المراكز الصناعية ، وظهر عدد من المدن الصناعية الجديدة .

وفي فترة ما بين عام ١٩١٣ وعام ١٩٥٩ ، نما المنتوج الصناعي الاجمالي في اوزبكستان الى ١٨ مرة ، وفي تركمانيا الى ٢١ مرة ، وفي طاجيكستان الى ٣٥ مرة ، وفي قرغيزيا الى ٥٥ مرة . وتنتج صناعة آسيا الوسطى الآن الفولاذ ، والقضبان والصفائح المعدنية ، والمعادن غير الحديدية ، والاسمدة المعدنية ، والآلات الادوات القاطعة للمعادن ، وماكينات جمع القطن

7*

وغيرها من الآلات الزراعية ، والحفارات ، والمعدات النفطية والكهرتكنيكية ، والاقمشة القطنية والصوفية والحريرية ، والاحذية ، والملابس ، والمعلبات ، والزجاج ، والاسمنت ، وهياكل الابنية من الباطون المسلح ، واشياء كثيرة غيرها . ويتسم باهمية على نطاق الاتحاد السوفييتي استخراج النفط والغاز ، وانتاج المنتوجات النفطية . ان المنتوج الصناعي في آسيا الوسطى لا يصدّر الى الجمهوريات الاخرى في الاتحاد السوفييتي وحسب ، وانما الى البلدان الاجنبية كذلك . ويستخدم استخداما واسعا في المؤسسات والمحطات الكهربائية والصناعة النفطية في آسيا الوسطى الاوتوماتيك والتيليميكانيك .

ان صناعة آسيا الوسطى تتطور بلا انقطاع وبصورة سريعة . ففي اوزبكستان ، مثلا ، ازداد استخراج الغاز ، في سنوات ١٩٦٠ — ١٩٦٢ فقط ، الى اكثر من اربع مرات ، وانتاج الآلات الادوات القاطعة للمعادن الى اكثر من ٢,٥ مرة ، وانتاج الطاقة الكهربائية زهاء ٢٨ ٪ . وفي جمهورية تركمانيا

الاشتراكية السوفييتية ، ازداد منتوج الصناعة الكبيرة ، من عام ١٩٤٠ الى عام ١٩٦١ ، الى ٦,٣ مرات. وبدأ في آسيا الوسطى بناء محطات كهرمائية ضخمة — محطة نوريك في طاجيكستان ، ومحطة توكتوقول في قرغيزيا .

وتبنى محطة نوريك الكهرمائية وقوتها مليونان و ٧٠٠ الف كيلوواط على نهر الوحش . وسيحجر المجرى الضيق لهذا النهر الجبلي الغزير المياه سد جبار علوه اكثر من ٣٠٠ متر . ان الطاقة الكهربائية الرخيصة لمحطة نوريك الكهرمائية لا تضمن المؤسسات الصناعية في طاجيكستان وبعض المناطق في جمهوريات آسيا الوسطى الاخرى وحسب ، وانما ستستغل ايضا المضخات الجبارة لري مئات الوف الهكتارات من الاراضي المقفرة حاليا .

وفي آن واحد مع تصنيع آسيا الوسطى ، انشئت هناك شبكة عصرية من النقليات والمواصلات . فقد اعيد تجهيز جميع السكك الحديدية على اساس التكنيك الحديث . وازداد حجم حمولاتها ، من عام ١٩١٧ الى

عام ١٩٥٧ ، الى ١٧ مرة . ولعب دورا كبيرا في آسيا الوسطى نفسها ، ولا سيما في قرغيزيا وطاجيكستان ، شق الطرق المعبدة (بما في ذلك عبر بلاد بامير الشاهقة الجبال المسماة بـ « سقف العالم ») ، والانتشار الواسع لنقليات السيارات — ففي قرغيزيا ، مثلا ، في المشروع الخماسي الثاني (١٩٣٣ — ١٩٣٧) ، كانت حصة نقليات السيارات ثلثي حجم الحمولات العام . ان كل مراكز الجمهوريات والمقاطعات واغلبية النواحي مرتبطة فيما بينها بالخطوط الجوية . وتطورت بصورة واسعة مواصلات الهاتف والراديو .

ونتيجة للتصنيع الاشتراكي ، تحولت آسيا الوسطى من بقعة زراعية متأخرة منتجة للخامات الى منطقة اقتصادية متقدمة ذات صناعة عالية التطور ومتعددة الفروع . وقد مكن هذا من حل مهمة اخرى بالغة الاهمية وهي تحقيق التحويل الاشتراكي للاقتصاد الزراعي . وهكذا ، فان التصنيع الاشتراكي ضمن انتصار الاشتراكية في آسيا الوسطى.

نشوء الطبقة العاملة الاهلية. ان هذه المشكلة

المرتبطة ارتباطا وثيقا بالتصنيع الاشتراكي قد استرعت انتباه الحزب منذ بداية العقد الثالث . وكان على انشاء الطبقة العاملة الاهلية ألا يضمن الصناعة المحلية بالملاكات الدائمة وحسب ، بل ان يضمن كذلك تعزيز تحالف العمال والفلاحين في آسيا الوسطى ، وان يرفع بصورة ملحوظة من المستوى الثقافي التكنيكي والتطور السياسي عند شعوب آسيا الوسطى . لقد كانت هذه المشكلة مشكلة اقتصادية وسياسية في آن واحد . وفي هذه الحالة، كان من الضروري تعليم وتربية ملاكات العمال الاهليين.

وتصعّب تكوّن الطبقة العاملة الاهلية في جمهوريات آسيا الوسطى بسبب ان تدفق القوة العاملة من الريف الى المدينة قد تقلص منذ النصف الثاني من العقد الثالث ، نظرا للتحسن العام في وضع الفلاحين . وبعد انتصار النظام الكولخوزي ، تأتى الانتقال الى التزويد المنظم بالقوة العاملة على اساس المعاهدات مع الكولخوزات . ولكن مع هذا ، فان الحزب حل بنجاح هذه المشكلة في اواسط العقد الرابع .

فمثلا، اذا كان عدد العاملين في صناعة تركمانيا عام ١٩٢٥ زهاء ٧٠٠ شخص فقط من القوميات المحلية، فقد اصبح عددهم عام ١٩٣٦ ستة آلاف و ٨٠٠ شخص ؛ وفي طاجيكستان ، حيث لم يكن يوجد في السابق او يكاد عمال طاجيكيون ، بلغ عددهم عام ١٩٣٦ اربعة آلاف و٤٥٢ عاملا ، وهذا يؤلف ٤٦,٣ ٪ من مجموع العمال الصناعيين . وفي عام ١٩٣٧ ، كان يعمل في الصناعة الكبيرة في اوزبكستان اكثر من ٢٠ الفا من العمال والمستخدمين المنحدرين من القوميات المحلية .

وتأتي بذل الجهود الكثيرة على تنشئة الملاكات الجديدة من العمال الاهليين . فقد حمل هؤلاء معهم من الريف الى المؤسسات الكثير من الاوهام المعيشية القديمة . مثلا ، في السنوات الاولى من عمل معمل لف الحرير في عشق آباد كانت العاملات التركمانيات يعملن جنب ازواجهن من كل بد ، واذا ما اراد رئيس الورشة اعطاء توجيه ما الى احدى العاملات لم يكن بوسعه القيام بهذا الا عن طريق زوجها . ان العمال والعاملات القدم يتذكرون الآن هذه الاشياء والابتسامة على وجوههم .

ولكن في تلك السنوات ، كانت المنظمات الحزبية والنقابية مضطرة الى النضال باصرار جدي في سبيل ادخال الثقافة ونمط الحياة الجديد الى وسط العمال القومي ، وفي سبيل التنشئة السياسية للطبقة العاملة الاهلية . الا انه فيما بعد وبالضبط بواسطة العمال المحليين تدفقت الثقافة المعاصرة ونمط الحياة الجديد بصورة واسعة الى الريف المحلي .

كان العمال المحليون قبل الثورة يُستخدمون ، في الاساس ، كقوة عاملة غير كفوءة . وكانت مشكلة اعداد العمال الاكفاء من القومية المحلية ، من الاجراء الزراعيين والرحل الاميين في الامس ، مشكلة معقدة جدا . ولكن الحزب حل هذه المهمة بنجاح مستندا الى الوعي الرفيع والتنظيم عند الملاكات القديمة في الطبقة العاملة . فمنذ اللحظة التي يظهر في المؤسسات الاشتراكية العامل المحلي — الاوزبكي ، التركماني ، القرغيزي ، الطاجيكي ، القراقالباقي — يكون محاطا بعناية واهتمام المنظمات الحزبية والنقابية والكومسومول . وافتتحت المدارس لتعليم الاميين . وعهد بمهمة مساعدة

العمال الاهليين غير الاكفاء الى عمال روس مجربين ، الى مدربين . وارسلت الشبيبة الفلاحية التي جاءت الى المعامل والمصانع في آسيا الوسطى ، ارسلت للتدرب على الانتاج في المراكز الصناعية القديمة في الاتحاد السوفييتي او انتسبت في اماكنها الى المدارس الانتاجية الخاصة . ونتيجة لهذا نما نموا سريعا عدد العمال الاكفاء من القوميات المحلية . ففي كومبينة النسيج في طشقند ، مثلا ، كان العمال الاوزبكيون الاكفاء عام ١٩٣٦ يشكلون بين عمال الغزل ٢٤,٤ ٪ ، وبين عمال الحياكة ٤١ ٪ ، وفي ورش الزركشة ٦٤,٨ ٪ .

وزود الكثير من المؤسسات الكبيرة الجديدة منذ البداية بالقوة العاملة حسب المبدأ التالي : كانت ترسل الى هناك فصيلة من العمال الاكفاء (في الاساس ، روس وتتر واذربيجانيون) من المراكز الصناعية القديمة ، تشكل نواة التلاحم الكفوءة للعاملين في المؤسسة ، ويرسل عدد اكبر بكثير من العمال المحليين الشباب غير المجربين بعد . وفي مجرى العمل المشترك ، لم يكن العمال الاكفاء ينقلون تجاربهم الانتاجية

لرفاقهم الجدد وحسب ، بل كانوا يربونهم بروح الايديولوجية البروليتارية ، ويساعدونهم كيما يربوا في انفسهم أثمن الخصال الاخلاقية والسياسية الملازمة للطبقة العاملة . ونتيجة للعمل السياسي التربوي الدؤوب ، نمت خلال سنوات قليلة جماعة انتاجية قوية متعددة القوميات ، كفوءة ومتلاحمة.

ترتب على المنظمات الحزبية في آسيا الوسطى ، في مجرى هذا العمل، ان تصطدم في بعض الاماكن باعمال استفزازية من العناصر المعادية التي حاولت تأليب العمال الروس والعمال المحليين بعضهم على بعض. فقد كان اعداء الاشتراكية والحزب يهمسون خلسة في آذان العمال الروس القليلي الوعي بان العمال المحليين سرعان ما يزيحون الروس. وقد استطاع الحزب دحض هذا الافتراء بسهولة . ففي واقع الأمر ، لم يكن هناك اي مجال للحديث عن اية « ازاحة» لاي جزء من العمال. لان الصناعة الاشتراكية في آسيا الوسطى تطورت بوتائر عالية كان معها نقص في الايدي العاملة خلال كامل فترة بناء الاشتراكية . فالبطالة في آسيا الوسطى ، شأنها

شأن الاتحاد السوفييتي بأسره ، صفيت تصفية نهائية منذ عام ١٩٣١ .

لم يستجب العمال للاستفزازات المعادية ، فقد كانوا دائما ولا يزالون محافظين على الوفاء لأفكار الاممية البروليتارية . وقد اقترب عدد جيش العمال المتعدد القوميات المتآخي في آسيا الوسطى عام ١٩٥٨ من المليون انسان ، واستمر بالنمو في السنوات التي تلت . ان الطبقة العاملة ، الدعامة المضمونة للحزب ، هي القوة القائدة للمجتمع الاشتراكي والحامل الرئيسي للسمو الفكري الشيوعي .

وجرى تأسيس الصناعة الكبيرة في آسيا الوسطى في جو من النهوض البالغ لعمل الطبقة العاملة . فمنذ عام ١٩٢٩ ، أخذت تتسع بصورة ملحوظة في آسيا الوسطى المباراة الاشتراكية وحركة الصداميين*. فلم يقتصر الامر على

---

* حركة الصداميين هي حركة لرفع انتاجية العمل وفي سبيل وتائر عليا («صدامية») في العمل، ظهرت في الاتحاد السوفييتي في عام ١٩٢٦ بمبادرة من العمال الطليعيين وانتشرت انتشارا واسعا على الاخص في سنوات المشروع الخماسي الاول (١٩٢٨ – ١٩٣٢).

عمال منفردين او فرق منفردة، بل اعلنت مؤسسات كاملة انها صدامية واحرزت نجاحات كبرى في النضال من اجل زيادة انتاج المنتوجات وتخفيض كلفتها.

وجرى في آن واحد مع تكوين الطبقة العاملة اعداد ملاكات المثقفين التكنيكيين الضرورية لادارة الصناعة. ولكن الحديث سيدور عن هذا فيما بعد.

ج) التحويل الاشتراكي للاقتصاد الزراعي

كانت مهمة التحويل الاشتراكي للاقتصاد الزراعي اكثر المهمات تعقيدا وصعوبة في عملية انتقال آسيا الوسطى الى الاشتراكية، مجتنبة مرحلة التطور الرأسمالية.

فالمعلوم ان الفلاحين كانوا يؤلفون هنا الاغلبية الساحقة من السكان، وكما قيل اعلاه، كانوا جميعهم تقريبا اميين وضعيفي التطور سياسيا، وكانت معرفتهم رديئة جدا في ما هي الاشتراكية وماذا تعطي للفلاحين.

وكانت عادات الاسلاف والتقاليد القديمة ، التي مرت عليها آلاف السنين ، تسيطر سيطرة تامة على فلاحي آسيا الوسطى . وكان الفلاحون يقفون من كل جديد موقفا في منتهى الارتياب والشك. وكان متخلفا بصورة خاصة قسم الفلاحين المتألف من مربي الماشية الرحل وسكان المناطق الجبلية المرتفعة العسيرة المنال .

ان جوهر التحويل الاشتراكي للاقتصاد الزراعي في آسيا الوسطى كان يكمن في كيفية تحويل اقتصاد الفلاحين البضاعي الصغير ، وجزئيا حتى البطريركي الطبيعي ، المتخلف تكنيكيا ، الى اقتصاد اشتراكي جماعي كبير ممكنن ينتج كميات ضخمة من البضائع ، دون اجتياز مرحلة الوسط من التطور ، الا وهي مرحلة الاقتصاد الرأسمالي الكبير القائم على استثمار عمل الاجراء الزراعيين.

ان التحويل الاشتراكي للاقتصاد الزراعي في آسيا الوسطى كان يعني اعادة بناء تكنيكي جذرية لزراعة الحقول وتربية المواشي ، وتصفية العلاقات البطريركية الاقطاعية في الريف، ونقل الجماهير الواسعة من الفلاحين

البطريركيين المتخلفين في ذلك الحين الى طريق الاشتراكية.

وتطلب تخلف الفلاحين في آسيا الوسطى تهيئة كبيرة وشاملة لتحويل الاقتصاد الزراعي تحويلا اشتراكيا. وهذه هي السنّة العامة لبناء الاشتراكية في البلدان المتخلفة فيما مضى من الناحية الاقتصادية –، فهو يبدأ هناك دائما من القيام بمختلف الاجراءات الانتقالية التحضيرية التي تستهدف تهيئة الفلاحين، اغلبية السكان، تهيئة تدريجية للانتقال الى طريق الاشتراكية.

في تاريخ بناء الاشتراكية في ريف آسيا الوسطى تتميّز بصورة دقيقة ثلاث مراحل تاريخية أساسية:

١) تهيئة الفلاحين للانتقال الى الطريق الاشتراكي (١٩٢٠ – ١٩٢٩)؛

٢) الاشاعة الواسعة للتعاونيات الزراعية (منذ خريف عام ١٩٢٩ حتى اواسط العقد الرابع)؛

٣) التعزيز والتطوير المطردان للنظام الكولخوزي (منذ اواسط العقد الرابع حتى الانتقال الى بناء الشيوعية في الاتحاد السوفييتي على نطاق واسع).

كانت المرحلتان الاوليان اكثر تعقيدا وصعوبة . ولهذا فاننا سنولي الاهتمام الرئيسي اليهما ، لان التجربة المكدسة في هذه السنوات في جمهوريات آسيا الوسطى ، من الضروري ان يأخذها بعين الاعتبار كل بلد يتحرر من نير الحكم الاستعماري ويسلك طريق بناء الاشتراكية.

التحضير لتحويل الاقتصاد الزراعي تحويلا اشتراكيا.

كان نشاط الهيئات الحزبية والسوفييتية في هذه المرحلة في آسيا الوسطى يستهدف قبل كل شيء تحسين الوضع الاقتصادي عند الفلاحين الكادحين وايقاظ وعيهم السياسي وتنظيمهم وانتزاعهم من تحت نفوذ الاقطاعيين والبايات الاقتصادي والسياسي ، ورصهم حول الحزب والسلطة السوفييتية ، وجذبهم للاشتراك في ابسط اشكال الجمعيات التعاونية ، وعلى هذه الصورة تهيئتهم للانتقال الى طريق التطور الاشتراكي .

لقد بين لينين لشيوعيي القفقاس وما وراء القفقاس ضرورة « السعي الفوري لتحسين وضع الفلاحين » *

* لينين. المؤلفات، الطبعة الروسية الرابعة، المجلد ٣٢، ص٢٩٧.

بوصفه مهمة من اولى مهام المنظمات الحزبية في البلدان والمناطق الفلاحية الضعيفة التطور اقتصاديا. ان هذا التوجيه اللينيني كان يخص كليا آسيا الوسطى كذلك.

فلكي يثق الفلاحون في الطابع الشعبي الحقيقي للدولة الاشتراكية من الضروري ان يتحسسوا في التطبيق، عمليا العناية المخلصة التي تبديها السلطة الجديدة بالكادح البسيط وتحسين وضعه الاقتصادي . لهذا تطلب الوضع في ريف آسيا الوسطى: اولا ، اجراء اصلاح للارض والري ، وثانيا ، توسيع اعمال الري ، وثالثا ، تزويد الفلاحين بالعتاد الزراعي العصري ، وتطبيق الطرق الزراعية الحديثة ، وتقديم التسليف الضروري للقيام بهذه التحسينات في الاقتصاد الزراعي .

في بداية العقد الثالث ، قدمت لفلاحي آسيا الوسطى الاراضي الشخصية التي كانت للقيصر الروسي وخان خيوه وامير بخارى وبضع عشرات من الاقطاعيين الكبار من اعداء الثورة الشرسين ، وكذلك للكولاك الروس النازحين . ولكن ملكية الارض الاقطاعية والكولاكية بقيت من حيث الاساس ، وكان لدى الفلاحين كالسابق

قليل جدا من الاراضي المروية . وكانت الوتيرة البطيئة في التحولات الزراعية تعود الى واقع ان الفلاحين المحليين الذين كان وعيهم السياسي متخلفا ، لم يحزموا أمرهم على تقويض النظم القديمة وانتزاع الارض من خانات « هم » وباياة «هم » ، على الرغم من انهم كانوا يعانون من الاستثمار ، لانهم كانوا كالسابق مضطرين الى استئجار الارض والماء منهم بشروط مجحفة ، واستئجار الادوات الزراعية وحيوانات العمل ، مقدمين لهم مقابل هذا من ٥٠ الى ٧٥ ٪ من المحصول .

وفي سنوات ١٩٢٥ – ١٩٢٧ فقط ، عندما تعززت المنظمة الجماهيرية للفلاحين الفقراء والمتوسطين اتحاد « الحراث » والسوفييتات الريفية وظهرت المنظمات الحزبية والكومسومولية الريفية ، وعندما ارتفع مستوى الوعي السياسي بعض الشيء عند فلاحي آسيا الوسطى ، آنذاك اجري اصلاح الارض والري في المناطق الزراعية المتقدمة في آسيا الوسطى . وانتزعت كليا الاراضي من الاقطاعيين والتجار والمرابين الذين لم يكونوا يفلحونها بايديهم ، وانما كانوا يؤجرونها للفلاحين

الفقراء ؛ واقتطع كذلك جزء من الارض من الاستثمارات الكولاكية التي تملك الاراضي الكثيرة . وقد مكّن هذا من اعطاء فلاحي آسيا الوسطى الذين لا ارض لهم او يملكون قليلا من الارض زهاء ٣٥٠ الف هكتار من الاراضي المروية ، وتوزيعها على حوالي ١٤٠ الفا من فلاحي جميع القوميات ، الذين لا يملكون ارضا او يملكون قليلا من الارض . ولأول مرة في تاريخ آسيا الوسطى نالت الارض الآلاف العديدة من النساء .

لقد قضى اصلاح الارض والري في القسم الاكبر من آسيا الوسطى على علاقات الارض والري القديمة الموروثة عن الازمنة الاقطاعية وبيّن للفلاحين الكادحين الطابع الشعبي الحقيقي للسلطة السوفييتية ، واضعف مواقع الكولاك الاقتصادية ، وصفّى الملكية الاقطاعية .

وقد حسّن الاصلاح بصورة ملحوظة وضع فلاحي آسيا الوسطى . وقدمت الدولة للفلاحين الذين حصلوا على ارض تسليفا لشراء العتاد وحيوانات العمل ، وجرى تخفيض الضرائب المأخوذة من هؤلاء الفلاحين في

السنوات الاولى من الاصلاح تخفيضا ملحوظا (من ٢٥ ٪ الى ٧٥ ٪).

ولكن اجراء اصلاح الارض والري لم يستطع ان يضمن للفلاحين الارض ضمانا تاما ، لان الارض المروية في آسيا الوسطى كانت قليلة بوجه عام . ففي جمهورية تركمانيا الاشتراكية السوفييتية ، مثلا ، حسب معطيات احصاءات عام ١٩٢٨ ، كان يتبع وسطيا لكل استثمارة ٢,٨ هكتار ارض، لا بل ١,٣ هكتار في دائرة كيركي . وبغية رفع مستوى الاقتصاد الزراعي في آسيا الوسطى بصورة حازمة، كان من الضروري القيام بعملية واسعة من بناء منشآت الري . وقد اولى لينين اهمية كبيرة للري ، فهو قد اعتبر ان الري يدفن الماضي ويعزز الانتقال الى الاشتراكية .

لقد اختطت الحكومة السوفييتية ، منذ عام ١٩١٨ ، مشاريع واسعة للري في آسيا الوسطى . وكانت الحرب الاهلية قد قطعت موقتا تحقيق هذه المشاريع . ولكن في العقد الثالث ، بعد التغلب على غواقب الحرب والجوع والدمار ، استؤنف هذا العمل من جديد . فقد

شق في آسيا الوسطى عدد من الاقنية الكبرى ، وبوشر بالاعمال الموجهة لري الاراضي البكر الخصبة في « السهوب الجائعة » وفي وادي نهر الوحش. واتسمت باهمية كبرى كذلك اعادة تجهيز شبكة الري القديمة على اساس التكنيك العصري للري ، الامر الذي زاد معدل قوتها بصورة ملحوظة . واخذت المساحات المزروعة في آسيا الوسطى تزداد ازديادا سريعا.

واولى الحزب الشيوعي والحكومة السوفييتية اهتماما كبيرا لتزويد الفلاحين بالعتاد الحديث وتطبيق الطرق الزراعية الحديثة . مثلا ، اذا كان تركمانيو منطقة ما وراء بحر قزوين لا يملكون عام ١٩١٤ الا ٦٤ محراثا و٣٦ بذارة قطن ، تخص الاقطاعيين والكولاك، فان تركمانيا كانت تملك في نهاية عام ١٩٢٩ تسعة آلاف و١١٥ محراثا و٢٧٠٠ بذارة قطن ، وآلاف غيرها من الادوات الزراعية العصرية ، و٣٣٠ جرارا اثارت عند الفلاحين المحليين انطباعا عظيما وكانت بمثابة وسيلة للتحريض البياني في سبيل الحياة الجديدة والسلطة السوفييتية. بالطبع ، في تلك السنوات ليست الجرارات

فحسب ، وانما حتى المحاريث والبذارات لم تكن كافية لكي تزود بها جميع الاستثمارات . ولهذا اكتسبت اهمية هائلة مراكز الآلات والجرارات التي كانت تقدم العتاد الزراعي بشروط مسهلة (وللفلاحين الفقراء غالبا بصورة مجانية) وتقوم بحراثة الارض بالجرارات . ولعبت دورا هاما كذلك مراكز الهندسة الزراعية والقطع النموذجية التي كان اصحابها يقومون تحت اشراف المهندسين الزراعيين بتطبيق الطرق الزراعية العلمية ويحصلون على محاصيل وافرة، جاذبين بمثلهم الجيران . كل هذا ساعد على الرفع التدريجي من مستوى حياة الفلاحين ، وزاد من استقلالهم الاقتصادي ، وحررهم من ظلم الاقطاعيين والكولاك . واصبح اقل فاقل عدد الفلاحين الذين يستأجرون الارض والمياه والمواشي والعتاد من البايات . وهذا ادى الى الهبوط العام لمكانة الاقطاعيين والكولاك ونفوذهم السياسي في ريف آسيا الوسطى.

لقد تحققت السياسة الزراعية التي انتهجها الحزب والسلطة السوفييتية في آسيا الوسطى في جو من الصراع

الطبقي الضاري . فقد شاهد الاقطاعيون والكولاك ان امكانياتهم الاستثمارية تتقلص اكثر فاكثر من جراء انتزاع الارض والمياه الزائدة منهم (الفائضة عن معدل العمل المقرر) ، وانتشار استئجار الآلات الحكومية وتقديم الدولة للتسليف الرخيص . ولهذا فانهم قاموا بحملة تحريضية شعواء ضد السلطة السوفييتية التي تحطم النظم الاستثمارية القديمة في الريف ، وقاموا بتشكيل العصابات المسلحة وقتل العاملين في السوفييتات والنشطاء الريفيين ، ونظموا مختلف الاعمال التخريبية .

ولكن هذا التفاقم للنضال الطبقي ساعد في الوقت نفسه على توسيع البصيرة السياسية واستنهاض النشاط السياسي عند الفلاحين . مثلا ، بعد ان قتل الكولاك في دائرة تشارجوو في جمهورية تركمانيا الاشتراكية السوفييتية الأجير الزراعي النشيط يغمور سيد مرادوف ، قدم اكثر من مئة اجير زراعي طلبات انتماء الى الحزب الشيوعي . ان فلاحي آسيا الوسطى ، اذ قطعوا صلتهم بالنظم المشاعية القبلية القديمة ، رصوا صفوفهم في المنظمات السوفييتية الجديدة — اتحاد « الحراث » ،

و « إتحاد شغيلة الارض والاحراش » الذي وحّد الاجراء الزراعيين ، وانتمت الشبيبة الى منظمات الكومسومول ، وانتمى افضل النشطاء الى الحزب الشيوعي .

لقد التف الفلاحون الكادحون في آسيا الوسطى حول الحزب الشيوعي والسلطة السوفييتية .

لغاية الآن والحديث يدور عن اجراءات الحزب الشيوعي والسلطة السوفييتية التي ساعدت تعزيز اقتصاد الفلاحين الكادحين الصغير، وحدّت من الاستثمار ، ولكنها لم تغير بصورة جذرية النظم في الريف . ولذا فان تطور الاقتصاد الزراعي ورفع مستوى حياة الفلاحين سارا بصورة بطيئة جدا . وقد بقي الاقتصاد الزراعي في آسيا الوسطى اقتصادا صغيرا ضعيفا . فانه حتى لدى توفر معونة الدولة غالبا ما كان عاجزا عن القيام بتحسينات اقتصادية باهظة التكاليف . مثلا ، كانت الجرارات تستخدم بصورة قليلة نسبيا ، لانها لم تكن قادرة على العمل في الحقول الفلاحية الصغيرة .

وأخذ الحزب والفلاحون يدركون بحدة متزايدة

صحة كلمات لينين العظيم : « لا يمكن التخلص من العوز بالاقتصاد الصغير» * . ان الانتقال الى الاستثمارات الكبيرة الممكننة التي تنتج كميات ضخمة من البضائع هو وحده الذي بوسعه ان يحمل في طياته التحول الجذري للاقتصاد الزراعي .

يجري هذا في البلدان الرأسمالية عن طريق خراب الملايين العديدة من جماهير الفلاحين الكادحين ونشوء استثمارات كبيرة اقطاعية او رأسمالية ، تستثمر بلا رحمة عمل الاجراء الزراعيين الذين لا ارض لهم . ان هذا الطريق هو طريق الحرمانات الشعبية ، طريق البؤس وخراب اغلبية الشعب . وهذا الطريق لم يكن مقبولا بالنسبة للسلطة السوفييتية . وقد بيّن لينين طريقا آخر هو طريق التعاون التدريجي للفلاحين الصغار . وكان على التعاون ان يبدأ من ابسط اشكال التنظيم التعاوني لتصريف منتوج الفلاحين و تزويدهم بالبضائع ، وكذلك تنظيم التسليف الزراعي ، وان ينتهي بتعاون

* لينين. المؤلفات، الطبعة الروسية الرابعة، المجلد ٣٠، ص١٢٧.

انتاج الفلاحين ــ انشاء استثمارات جماعية كبيرة مزودة بالآلات وتمارس الاقتصاد على الطريقة العصرية . لقد كان هذا هو الطريق الوحيد الممكن لتحويل الاقتصاد الفلاحي تحويلا اشتراكيا .

كان هذا الطريق في تلك السنوات غير عادي وغير مطروق . فالفلاحون الذين مارسوا الاقتصاد الفردي الصغير على مر القرون كانوا مرتبطين بقطع ارضهم الصغيرة ووقفوا بعدم ثقة من فكرة التوحيد في استثمارة جماعية ، وخافوا البدء بحياة جديدة غير مألوفة . لهذا بالذات اشار لينين الى التدريج والطوعية ، بصفتهما ضمان نجاح انتقال الفلاحين الى اشكال الاقتصاد الاشتراكية .

بدئ بتحقيق البرنامج التعاوني اللينيني في آسيا الوسطى ، كما في الاتحاد السوفييتي بأسره ، منذ النصف الاول من العقد الثالث . فقد أخذت تتكون هنا جمعيات تعاونية زراعية عديدة .

اكثر هذه الجمعيات بساطة كانت الجمعيات الاستهلاكية . فعلى أساس اشتراكات الدخول

المجموعة من الفلاحين ، افتتحت هذه الجمعيات في القرى مخازن تعاونية وأخذت تبيع المشتركين فيها بضائع باسعار اقل من اسعار بضائع التجار الخاصين. وكانت الدولة تساعد هذه الجمعيات وتزودها ، بالدرجة الاولى وباسعار مخفضة ، بالبضائع الضرورية للفلاحين. بالنتيجة كانت البضائع في المخازن التعاونية ارخص ١٠ — ٢٠ ٪ منها عند التجار الخاصين.

ولقد اقتنع الفلاحون جليا بفائدة الاتحاد في التعاونيات. وأخذت التجارة التعاونية تزيح التجارة الخاصة بصورة سريعة.

وكانت جمعيات التسليف والتصريف تمثل طرازا من التعاون اعلى بعض الشيء. فقد كانت هذه الجمعيات تحصل من الدولة بشروط مسهلة على التسليف وتوزع هذه التسليفات على اعضاء التعاونية. وكانت التسليفات مخصصة لتحسين الاقتصاد الفلاحي. على هذه الصورة ، كان نشاط هذه التعاونيات مرتبطا بدرجة معينة بالانتاج. وكانت هذه الجمعيات ايضا تنظم بيع منتوج

الاستثمارات الفلاحية الى هيئات التخزين الحكومية .
كل هذا كان مريحا ومفيدا للفلاحين .
وكانت جمعيات اصلاح الاراضي (بتجفيفها او بريها) وجمعيات الآلات مرتبطة بصورة اوثق بالنشاط الانتاجي . فجمعيات اصلاح الاراضي كانت توحد الفلاحين الذين يستخدمون المياه من قناة واحدة صغيرة ، وتنظم تصليح منشآت الري الصغيرة ، وتنظيفها ، واعادة تجهيزها ، وكذلك تقوم بمكافحة المستنقعات والملوحة في حقول الفلاحين عن طريق القيام بعمليات التجفيف بواسطة الاقنية . وكانت جمعيات الآلات تشتري العتاد الزراعي العصري من الدولة بالتقسيط ، ثم تقوم على أساس الدور بفلاحة قطع ارض اعضائها .
وكان ثمة انواع اخرى من التعاونيات . فمنذ عام ١٩٢٩ ، انتشرت انتشارا واسعا ابسط الجمعيات الانتاجية — جمعيات زراعة القطن وتربية المواشي وانتاج الحرير وغيرها . وهذه التعاونيات ، خلافا لانواع التعاونيات الاخرى ، كانت تشتمل على جميع جوانب النشاط المرتبط بنوع معين من الاقتصاد — مثلا ، تسليف

استثمارات زراعة القطن ، تهيئة شبكة الري ، شراء الاسمدة واستخدامها ، شراء الآلات وتنظيم استخدامها جماعيا في فلاحة نبات القطن وبيع القطن الى الهيئات الحكومية وتزويد الفلاحين زراع القطن بالحبوب والبضائع الصناعية الضرورية .

هل كانت ضرورية هذه الاشكال المختلفة من التعاونيات ؟ بالطبع ، في الظروف المختلفة قد يلزم بعضها ويكون بعضها الآخر زائدا لا حاجة اليه . ولكن بالاجمال ، فان هذا التنوع في الآونة الاولى في آسيا الوسطى كان مفيدا جدا . فالفلاح الذي واجه التنظيم التعاوني لاول مرة كان بوسعه ان يختار بحرية طراز التعاونية حسب ذوقه، اي تبعا لمستوى تطوره الثقافي والسياسي . وهو ، اذ يتعرف على مبدأ العمل في تعاونيته ويقتنع بفائدة وافضليات الاقتصاد التعاوني ، فانه كان عادة ينتقل بعد ذلك الى طراز اعلى من التعاون . وكانت اكثر من ذلك الحالات التي كان فيها اجتماع المشتركين في التعاونية ، بعد مرور سنتين او ثلاث سنوات من عمل التعاونية الناجح ، يتخذ قرارا بتحويل

التعاونية الى شكل اعلى من الجمعيات التعاونية. وهكذا، على سبيل المثال ، انتقلت تعاونيات تسليفية - تصريفية كثيرة الى ميثاق الجمعيات الانتاجية البسيطة ، اي انها اصبحت تشتمل بنشاطها على مجال الانتاج بدرجة اكبر .

ان ابسط اشكال التعاون هذه ، كما تنبأ لينين ، كانت مفهومة وفي متناول جميع الفلاحين ، بمن فيهم فلاحو آسيا الوسطى . فالفلاحون كانوا يدخلون فيها عن رضى تام، خصوصا وان الدولة كانت تقدم التسليف الى التعاونيات وتبيعها الآلات والعتاد بالدرجة الاولى وبشروط مسهلة على الاخص . وفي عام ١٩٢٩ ، شمل التعاون الزراعي في جمهوريتي اوزبكستان وتركمانيا الاشتراكيتين السوفييتيتين ٨٠ ٪ من الفلاحين ، اي الاغلبية العظمى من السكان الذين ما زالوا متأخرين في تلك الفترة . صحيح ان الفلاح كان في جميع اشكال التعاونيات المذكورة لا يزال مالكا فرديا لاقتصاده : ولكن التنظيم الاجتماعي ، التعاوني كان يستوعب اعمق فاعمق هذه الاستثمارات الفردية . وأخذ فلاحو آسيا

الوسطى يتعودون اكثر فاكثر على مناقشة وحل المسائل الاقتصادية بصورة مشتركة جماعية ، وعلى ممارسة الاقتصاد المشتركة .

واتسم بأهمية كبيرة ايضا التعاقد الحكومي لشراء منتوج الاقتصاد الزراعي ، هذا التعاقد الذي كان مربحا للفلاحين ، لان التسليف حسب التعاقد على المنتوج كان يقدم بشروط مسهلة جدا ، وكان المنتوج (القطن ، الصوف ، جوزة القز) يباع باسعار لا تقل عن اسعار السوق ، وكانت الدولة تضمن الفلاحين بالبضائع الصناعية الضرورية بموجب اتفاقيات بهذا الشأن . وفي الوقت نفسه ، كانت الدولة الاشتراكية تحصل عن طريق التعاقد على امكانية تخطيط الانتاج الزراعي الى حد ما ، وتعود الفلاحون الصغار على التعاون مع الهيئات الحكومية وتوفيق اقتصادهم مع حاجات الدولة . لقد انتشر التعاقد في آسيا الوسطى انتشارا واسعا كذلك ــ فقد شمل ، مثلا ، ١٠٠ ٪ من استثمارات زراعة القطن . وكان يتم التعاقد عادة عن طريق المنظمات التعاونية .

ان ابسط اشكال التعاون الزراعي والتعاقد الاشتراكي على المنتوج الزراعي لعبت دورا كبيرا في تهيئة انتقال فلاحي آسيا الوسطى ، والاتحاد السوفييتي بأسره، الى طريق الاشتراكية .

وفي الوقت نفسه ، بدأ في آسيا الوسطى تأسيس اولى التعاونيات الزراعية ذات الطراز الاعلى — الكولخوزات (الاستثمارات الجماعية) . كانت الكولخوزات الاولى تمثل منظمات ذات اطرزة متنوعة (جمعيات الفلاحة المشتركة للارض، التعاونيات الزراعية) * صغيرة من حيث عدد المشتركين فيها وضعيفة من الناحية الاقتصادية : كان يضم الكولخوز وسطيا اقل من ١٥ استثمارة بمساحة تزيد قليلا على ٢١ هكتارا من الارض الصالحة للزراعة . وكان يدخل

* في جمعيات الفلاحة المشتركة للارض بقي الفلاحون مالكين لقطع الارض والعتاد وماشية العمل ولم يوحدوا الا عملهم اثناء العمل في الحقل. في التعاونيات الزراعية توحدت: الارض، العتاد الاساسي، ماشية العمل، جزء من الماشية والطيور المنتجة؛ وكان للكولخوزيين قطع من الارض ملاصقة للبيوت وماشية منتجة-وطيور وعتاد صغير.

فيها عادة الفلاحون الفقراء والاجراء الزراعيون . ولكن الكولخوزات كانت تتميز عن اشكال التعاون البسيطة الدنيا بكونها كانت قائمة على الانتاج الجماعي . ان الكولخوزات انما هي استثمارات من الطراز الاشتراكي . وهذه الكولخوزات الاولى مكنت من تكديس تجربة ثمينة في مجال تنظيم الممارسة الجماعية للاقتصاد ولعبت دورا كبيرا في تحضير المرحلة الحاسمة في التحويل الاشتراكي للاقتصاد الزراعي – الاشاعة الواسعة للتعاونيات .

الاشاعة الواسعة للتعاونيات . ان تطور الصناعة الكبيرة في الاتحاد السوفييتي – انتاج الجرارات وغيرها من الآلات الزراعية ، والاسمدة المعدنية وهلمجرا – انشأ المقدمات المادية الضرورية للانتقال من الاقتصاد الفلاحي الصغير الفردي المتأخر الى الاستثمارات الاشتراكية الكبيرة الممكننة. ومنذ خريف عام ١٩٢٩ ، بدأت في الاتحاد السوفييتي الاشاعة الواسعة لتعاونيات الفلاحين ، التي انتشرت في آسيا الوسطى كذلك .

في هذا الوقت كان فلاحو آسيا الوسطى الاهليون متهيئين ، لدرجة ملحوظة ، للانتقال الى طريق الاشتراكية . ولكن المنظمات الحزبية ، مراعاة منها لتعقد هذا الانتقال ، عبأت كل القوى والوسائل من اجل القيام بالدعاية والتحريض بين الفلاحين موضحة لهم ضرورة الانتقال الى الاقتصاد الجماعي بغية تخطي التخلف في ريف آسيا الوسطى ، ومبينة فائدة هذا الانتقال بالدرجة الاولى للفلاحين انفسهم .

وقام الشيوعيون والكومسومولون الريفيون باصعب الاعمال . فهم اول من دخل الكولخوزات وجروا وراءهم اناسا آخرين من القاطنين معهم في القرى. وكان عظيما جدا في هذه الفترة دور الكولخوزات الاولية . فالكولخوزيون المشتركون فيها كانوا يطوفون القرى المجاورة ويتحدثون عن تجربة عملهم وعن الحياة والنظم في الكولخوز وعن العمل الجماعي . ان هذا المثال الجلي اقنع الكثير من المترددين .

وكان يأتي احيانا الى الكولخوزات الجيدة القوية ممثلو الفلاحين في المقاطعات والمناطق الاخرى الواقعة

على بعد مئات الكيلومترات كيما يقتنعوا بام اعينهم بان الكولخوزيين يعملون بالفعل بنجاح وانهم يحصلون على محاصيل وافرة ويعيشون اغنى من الفلاحين الفرديين المجاورين لهم . ان هذه الزيارة للكولخوز الطليعي كانت عادة تفيد اكثر بكثير من عشرات الخطابات . وكان مندوبو الفلاحين يبدأون فورا بطرح الاسئلة الكثيرة : كيف نظم الاقتصاد الكولخوزي وكيف تجري ممارسته وكيف يقسم الدخل ، وكانوا يهتمون بجميع تفاصيل عمل الكولخوزيين وحياتهم ، ويعودون الى قراهم انصارا للدخول في الكولخوزات . ان تجربة آسيا الوسطى تشهد على انه قبل البدء بالاشاعة الواسعة للتعاونيات من المهم جدا تأسيس ولو عدد قليل من الاستثمارات الجماعية القوية الحسنة التنظيم التي هي بمثابة نقاط ارتكاز للحركة الشاملة .

ولعبت الطبقة العاملة في المدن دورا كبيرا ، فهي قد استفادت من كامل نفوذها على حلفائها ــ الفلاحين ــ لاقناعهم بقطع صلتهم بالاقتصاد الخاص الصغير القديم ،

المألوف والانتقال الى طريق التطور الاشتراكي . كان لينين يولي على الدوام أهمية كبرى للصلة الوثقى بين عمال المدن والفلاحين . وفي العقد الثالث ، تطورت تطورا كبيرا رعاية مؤسسات المدن للقرى . وكان افراد مؤسسات الرعاية هذه يسافرون الى القرى وينظمون هناك اجتماعات مشتركة ويقومون بعمل سياسي توضيحي ، ويؤدون حفلات الغناء والرقص ، وفي الوقت نفسه يساعدون الفلاحين في الشؤون الاقتصادية . واتسع مدى هذا العمل اتساعا اكبر في فترة الاشاعة الواسعة للتعاونيات . ففي عام ١٩٢٩ ، عقدت اتفاقية للقيام بمباراة اشتراكية بين عمال النسيج في موسكو ولينينغراد وايفانوفو وزراع القطن في آسيا الوسطى . وقد ارسلت من هذه المدن الى قرى آسيا الوسطى ٦٢ فرقة عمالية عددها الاجمالي ٣٥٦ شخصا . كانت هذه الفرق تساعد على تصليح العتاد الزراعي وتعرض الافلام السينمائية وتقوم في آن واحد بالتحريض للدخول في الكولخوزات . كما وبعثت مدن آسيا الوسطى كثرة من فرق العمال الى القرى .

ولتشديد الحركة الكولخوزية ، قررت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ان ترسل الى الريف للعمل الدائم ٢٥ الفا من العمال الاكفاء . ومن هذا الحرس العمالي المجيد وصل الى جمهوريات آسيا الوسطى اكثر من الف فرد . ان « افراد الخمسة وعشر ين الفا » حملوا معهم الى قرى آسيا الوسطى التجربة الثورية عند الطبقة العاملة الروسية وتنظيمها وانضباطها ووعيها الاشتراكي الرفيع والتعود على العمل الجماعي . لقد نقلوا هذه الخصال الرا ئعة الى الفلاحين ، وربوا فيهم الموقف الاشتراكي من العمل ومن الملكية الكولخوزية ، ونشروا تجربة المباراة الاشتراكية والحركة الصدامية .

ولعب دورا كبيرا في انتقال الفلاحين الى طريق الاشتراكية التكنيك الحديث الذي كانت صناعة الاتحاد السوفييتي ، بعد ان قويت ساعدها، تقدمه بسخاء الى الريف . ففي عام ١٩٢٩ فقط، شحن الى اوزبكستان ٥٣٠٧٤ محراثا ، و٢٩٧٩٤ مسلفة ، و١٠٣٦٥ آلة لعزق التربة واقتلاع الاعشاب الضارة ، و٩٩١٥ بذارة

للقطن . وازيحت من الحقل بصورة سريعة الادوات البدائية القديمة ـ المحراث الخشبي والمعزقة . واتسمت باهمية كبيرة خاصة بشأن تحويل الاقتصاد الزراعي تحويلا اشتراكيا الجرارا ت التي كان عددها في آسيا الوسطى عام ١٩٢٨ يزيد بقليل على ١٥٠٠ ، اما في عام ١٩٣٧ فقد اصبح قرا بة ٣٤ الفا .

مع هذا ، ففي تلك السنوات كان التكنيك الزراعي في الاتحاد السوفييتي غير كاف من اجل ضمان جميع الكولخوزا ت به في آن واحد ، بالاضافة الى ان الكولخوزات كانت لا تزال ضعيفة لكيما تشتري آلات باهظة الثمن . ولذا انشئت محطات الآلات والجرارات الحكومية التي كانت متمركزة فيها الجرارات والتكنيك الزراعي الاساسي باكمله . كانت محطات الآلات والجرارا ت ، اذ تنقل تكنيكها من قطعة ارض الى اخرى ، تفلح الارض التابعة لجميع الكولخوزا ت في مقاطعتها . لقد لعبت محطات الآلات والجرارات ، التي دامت منذ ١٩٢٩ حتى عام ١٩٥٨ ، دورا هاما

للغاية في انتصار وتعزيز النظام الكولخوزي. وليس عبثا اسموها نقاط الارتكاز للاشتراكية في الريف.

بجانب الكولخوزات ومحطات الآلات والجرارات، انشئت في المناطق الريفية في آسيا الوسطى استثمارات حكومية كبيرة ـ السوفخوزات، وكانت في الاساس سوفخوزات لتربية الماشية وزراعة الحبوب وزراعة الاشجار المثمرة. وكانت السوفخوزات، كقاعدة عامة، تؤسس في الاراضي البكر وتؤمن تأمينا حسنا بالجرارات وغيرها من التكنيك الزراعي، وتزود بالملاكات الكفوءة. وكانت تستخدم في السوفخوزات بالدرجة الاولى احدث منجزات العلم والتجربة الطليعية. وكانت بالنسبة للكولخوزات المجاورة بمثابة مثال على تنظيم وممارسة الاقتصاد الكبير. وساعدت السوفخوزات الفلاحين في القرى المجاورة على انشاء كولخوزات جديدة وخصصت لهم في الآونة الأولى التكنيك الضروري والمرشدين.

ونتيجة العمل الدؤوب الذي قامت به المنظمات الحزبية والكومسومولية والسوفييتات المحلية وفرق العمال،

أخذت الحركة الكولخوزية في آسيا الوسطى تتطور بصورة سريعة. مثلا، اذا كانت الكولخوزات في اوزبكستان، حتى اول اكتوبر (تشرين الاول) عام ١٩٢٩، لا تضم الا ٣,٤٪ من الفلاحين، فان ٢٧,٧٪ من الفلاحين انضموا الى الكولخوزات حتى ربيع عام ١٩٣٠. على هذا النحو تقريبا سارت اشاعة التعاونيات في المقاطعات الاخرى.

ان الاشاعة الواسعة للتعاونيات في الاقتصاد الزراعي قد اثارت مقاومة ضارية من جانب العناصر المعادية طبقيا. فقد كان البايات وعملاؤهم يقنعون الفلاحين بالا ينضموا الى الكولخوزات وان يذبحوا المواشي ويهربوا الى خارج البلاد. ونتيجة لعمل العدو الطبقي ابيدت كمية هائلة من الماشية. وكان البايات ينظمون عمليات قتل النشطاء الكولخوزيين، واشتد ثانية نشاط العصابات المسلحة المعادية للثورة. ان قطاع الطرق، اذ حصلوا من الامبرياليين الانكليز وغيرهم من الامبرياليين على المساعدة المالية وعلى السلاح، تمركزوا في اكثر المناطق الجبلية والسهلة تأخرا

وخاضوا حربا مكشوفة ضد السلطة السوفييتية. ولما كان قطاع الطرق المعادون للثورة عاجزين عن جر جماهير الفلاحين وراءهم ، فقد اخذوا بشن الغارات على القرى الآمنة مرهبين بذلك الفلاحين . مثلا ، اثناء الهجوم الذي قام به قطاع الطرق المعادون للثورة على قرية غيوكلين الواقعة شمال تركمانيا في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٣٠، قتل وحرق احياء حوالي ٢٠٠ فلاح . وانتشر النضال الطبقي العنيف في جميع ارجاء آسيا الوسطى .

أضف الى هذا ان الأمر لم يخل من اخطاء اقترفها بعض العاملين الحزبيين والسوفييتيين . ففي بعض الاماكن ، انتهك مبدأ الطوعية في الحركة الكولخوزية . واقترف كذلك خطأ آخر مناف للينينية ، فبدلا من الانتقال التدريجي من اشكال التعاونيات الدنيا الى الاعلى منها اخذوا في بعض الاماكن يغرسون الكومونات. فاثار كل هذا الاستياء عند الفلاحين .

لقد اصلحت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي هذه الاخطاء، وقامت الدولة بتقديم

مساعدة ملحوظة للكولخوزات — فجرى تخفيض الضرائب وأجّل دفع الديون بموجب التسليف ، الخ.. واعفيت على العموم من الضرائب موقتا الكولخوزات الضعيفة جدا . وازداد تزويد الريف بالجرارات والاسمدة الكيميائية .

وانتقلت اغلبية كولخوزات آسيا الوسطى الى ميثاق جمعية الفلاحة المشتركة للارض . ان هذا الشكل الادنى من الاقتصاد الجماعي ضمن انتقال الفلاحين بترو اكثر الى الطريق الجديد ، الطريق الاشتراكي . وفيما بعد، وبمقدار تعزيز النظام الكولخوزي ، أخذ ينتشر ثانية شكل كولخوزي اعلى هو التعاونية الزراعية .

وفي خريف عام ١٩٣٠ ، بدأ نهوض جديد في الحركة الكولخوزية في آسيا الوسطى . ففي عدد من المناطق ، انتشر التعاون على نطاق شامل . فقد انضم الى الكولخوزات الفلاحون الكادحون بأسرهم . وبما ان الاقطاعيين والكولاك قاوموا بعناد الحركة الكولخوزية ، بالاضافة الى استمرار اعمال الارهاب وغارات عصابات اللصوص — لذلك بدأ نفيهم من مناطق التعاون الشامل ،

اما ما يخصهم من قطع ارض وعتاد وماشية فقد قدمت للكولخوزات . على هذا النحو ، في مجرى التعاون على نطاق شامل صفيت كليا بقايا الطبقات المستثمرة في آسيا الوسطى المؤلفة من البايات والخانات والمرابين ، الخ..

ان تصفية فئة البايات وبقايا الاقطاعيين غيرت الوضع باكمله في ريف آسيا الوسطى. فقد فقدت العصابات المسلحة كل دعامة وسرعان ما صفيت بصورة نهائية . وقد اشترك في النضال ضدها مئات المتطوعين من فلاحي آسيا الوسطى.

ان تصفية الطبقات المستثمرة ساعدت على النجاحات اللاحقة للحركة الكولخوزية . ففي نهاية عام ١٩٣٢ ، كانت الكولخوزات في اوزبكستان تضم ٨١,٧٪ من الفلاحين ، وفي تركمانيا ٧٣٪، وفي قرغيزيا ٦٧,٤٪، . وفي طاجيكستان ٤١,٩٪*. ان هذا

* مرد تأخر طاجيكستان الى ثلاثة اسباب: التأخر العام، في الجمهورية التي كان قسمها الاساسي في السابق يدخل ضمن امارة بخارى؛ الطابع الجبلي للقسم الاكبر من البلاد، وفي هذه الظروف يعطي اتحاد

كان يعني انتصار الحركة الكولخوزية وانتقال الجماهير الاساسية من فلاحي آسيا الوسطى الى طريق الاشتراكية .

وسارت اشاعة التعاونيات في مناطق تربية المواشي بصورة ابطأ منها في المناطق الاخرى . لقد كان هذا قبل كل شيء عاقبة التخلف المتناهي عند مربي المواشي الرحل الذين كان اقتصادهم يحافظ على الطابع البطريركي الطبيعي . وتطلب هذا الوضع عملا تحضيريا كبيرا خاصا بين هذا الجزء من فلاحي آسيا الوسطى . ولكن ، في العقد الثالث ، لم تقدر الهيئات السوفييتية والحزبية المحلية على القيام بالعمل الضروري بين مربي المواشي الرحل . ففي مناطق تربية الماشية في تركمانيا وقرغيزيا ، كان الانتاج البضاعي حتى بداية العقد الرابع يتطور تطورا بطيئا جدا ، وكانت السوفييتات المحلية ضعيفة للغاية ، وبقيت قائمة

الاستثمارات الصغيرة فعالية اقتصادية اقل منها في المناطق السهلية؛ تخريب المنحرفين القوميين الذين تسربوا في نهاية العقد الثالث الى اكثرية المناصب القيادية في الجمهورية. وهذا التأخر صفي في نهاية العقد الرابع. . .

الاستثمارات الكبيرة ذات الطراز الاقطاعي ، وكان الشغيلة رعاة الماشية واقعين تحت تأثير وجهاء القبائل والعشائر القوي.

ولم تشمل الحركة الكولخوزية مناطق تربية الماشية الا في عام ١٩٣١. وبدأ في آن واحد انتقال استثمارات الرحل بصورة منتظمة الى التحضر. وقد ضمن هذا تعزيز كولخوزات تربية المواشي ، ومكّن من تحسين العمل الثقافي التنويري بين السكان والقضاء على الامراض ومختلف الصعوبات المعيشية الحتمية في ظروف حياة البداوة. وقد خصصت الحكومة السوفييتية الاموال الطائلة للبناء الاقتصادي المعيشي من اجل المتحضرين. وفي النصف الثاني من العقد الرابع ، لم يبق في آسيا الوسطى سكان رحل تقريبا.

وبمقدار زيادة عدد الكولخوزات أخذت تحوز على اهمية كبيرة متزايدة مشكلة تعزيزها التنظيمي والاقتصادي.

لاول مرة في التاريخ ، سلك الفلاحون طريق الممارسة المشتركة للاقتصاد. ولقد سبب هذا عدة

صعوبات . ففي الآونة الاولى ، لم تكن عند اغلبية الكولخوزيين عادات العمل الجماعي ، ولم تكن عند قادة الكولخوزات المقدرة على ادارة الاستثمارات الجماعية الكبيرة . وكثيرا ما كانوا يقسمون الدخل « حسب الآكلين » . وفي هذه الحالة ، كان يحصل على نفس المقدار الكادح الشريف والتنبل المتكاسل عن العمل . وهذا لم يخلق مصلحة مادية في العمل . وكان حساب العمل يجري بصورة زديئة ، ولم تكن ثمة عناية بالثروة الاجتماعية . واثناء جمع المحصول كانت تحصل خسائر كبيرة ، وكان يتكرر موت المواشي ، الخ ..

لقد انهمكت المنظمات الحزبية في تنظيم شؤون القضية الجديدة المعقدة ـ الاقتصاد الكولخوزي .

منذ عام ١٩٣١ ، واستنادا الى تجربة الكولخوزات الطليعية في البلاد ، اوصت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ان يكون معدل « يوم العمل » اساسا لحساب العمل والتوزيع . وفي آسيا الوسطى ، كما في الاتحاد

السوفييتي بأسره ، وضعت معدلات للعمل الزراعي وبدأ يدخل حيز الاستعمال عمل القطعة الفردي.

وهذا يعني انه كان يسجل للكولخوزي عدد معين من ايام العمل مقابل كل عمل يقوم به طبقا للمعدلات اليومية المتفق عليها لانتاجية العمل ونوعيته. وفي نهاية السنة ، كان يحسم قسم معين من دخل الكولخوز ويذهب الى الصندوق الثابت (اي لحاجات الاقتصاد ككل)، وكل ما تبقى يقسم على الكمية العامة لأيام العمل التي كسبها جميع الكولخوزيين في بحر السنة لتحديد مقدار يوم عمل واحد. بعد هذا ، كان كل كولخوزي ينال حصته من المدخول طبقا لكمية ايام العمل التي كسبها. بموجب هذا النظام ، لم يكن بوسع الكسول ان ينال نفس المقدار الذي يناله الكادح الشريف.

في هذه الحالة اصبح دخل كل كولخوزي يتوقف على كمية ونوعية عمله في الاقتصاد الاجتماعي. وقد ساند القسم الطليعي من الفلاحين قرارات الحزب هذه مساندة نشيطة.

وضمن تحقيق هذه الاجراءات تقوية ملحوظة للكولخوزات . ولكن في عام ١٩٣٢ ، لم تكن كافية بعد في ريف آسيا الوسطى الملاكات الكولخوزية القيادية القادرة على ان تدير بمعرفة الاقتصاد الكبير المعقد ، بالاضافة الى ان مستوى الاعداد التعليمي العام والتكنيكي والسياسي عند الفلاحين انفسهم كان لا يزال متأخرا عن متطلبات الحياة .

جاء الحزب الشيوعي من جديد لمساعدة الفلاحين. وبغية مساعدة الكولخوزيين على تسيير امور الاقتصاد الاجتماعي واعداد الملاكات الضرورية، أسست لدى محطات الآلات والجرارات اقسام سياسية مزودة بعاملين حزبيين ذوي اعداد حسن ومجربين . وقد اعتمدوا على المنظمات الحزبية الكولخوزية وعلى النشطاء اللاحزبيين ، وساعدوا الكولخوزات على تنظيم وحساب العمل ، وعلى تنظيم التوزيع الصحيح للمداخيل وتطبيق الطرق الزراعية الجديدة .

ان الاقسام السياسية لدى محطات الآلات والجرارات استطاعت ان تحرز في فترة قصيرة

بقوية تنظيمية واقتصادية ملحوظة للكولخوزات . وجرى تعزيز الانضباط في العمل ، ونُظّم العمل وحساب العمل وتوزيع المداخيل .

واتسم باهمية هائلة في هذه السنوات الاعداد الواسع للملاكات الكولخوزية .

في السابق ، لم يكن الفلاح يحصل على اي اعداد اختصاصي ، وكان يكتفي بمعرفة عادات العمل البسيطة التي كان يأخذها عن الكبار في عمله معهم سوية . ولكن هذه المعارف كانت قليلة بالنسبة للانتاج الكولخوزي الكبير المتعدد الفروع القائم على استخدام التكنيك المعقد والعلم الزراعي العصري . لقد ترتب على جميع الفلاحين الكولخوزيين ، وقبل كل شيء رؤساء الكولخوزات وقادة الفرق وغيرهم من القادة ، ان يبدأوا بالتعلم . وهذا التعليم الشامل للفلاحين كان ظاهرة جديدة لم يسبق لها مثيل في ريف آسيا الوسطى . وقد ضمن هذا تملك ناصية التكنيك الحديث واعادة بناء الاقتصاد الزراعي باكمله على اساس العلم الزراعي الطليعي ، والتقوية التنظيمية للكولخوزات . وترعرع

في الكولخوزات جيش كامل من المهرة في الزراعة وتربية الماشية يجيد معرفة المنجزات الطليعية لعلم الاقتصاد الزراعي ويطبقها بمقدرة في الاقتصاد الكولخوزي.

نحو اواسط العقد الرابع، انجزت في الاساس اشاعة التعاونيات في الاقتصاد الزراعي في آسيا الوسطى، وكان هذا يعني حدوث تغير جذري في حياة شعوب آسيا الوسطى، هذه الشعوب الفلاحية في اساسها.

لقد صفيت الطبقات المستثمرة، وانتقلت الى طريق الاشتراكية اكبر طبقة من السكان - طبقة الفلاحين. وحلت محل الاستثمارات الفلاحية الصغيرة شبه البائسة وذات التكنيك البدائي استثمارات اشتراكية كبيرة ممكننة تنتج كميات ضخمة من البضائع - الكولخوزات والسوفخوزات.

على هذا النحو، لم تنتصر العلاقات الاشتراكية في آسيا الوسطى في المدينة وحسب، وانما انتصرت في القرية كذلك.

ان تجربة آسيا الوسطى، شأنها شأن تجربة الاتحاد السوفييتي بأسره، تبين انه مهما كان حسنا تحضير

الفلاحين للانتقال الى طريق الاقتصاد الاشتراكي ، فان الاشاعة الواسعة للتعاونيات ـ هذه المرحلة الحاسمة في تحويل الاقتصاد الزراعي تحويلا اشتراكيا ـ لن تجري من تلقاء ذاتها أبدا . ان اجراءها يتطلب القيادة الدائمة من جانب الحزب والدولة الاشتراكية ومساعدتهما الواسعة والشاملة للفلاحين في اللحظة الصعبة ذات المسؤولية ، لحظة انتقال جماهير الفلاحين الاساسية الى طريق الحياة الجديدة . وكانت هذه المساعدة ضرورية بصورة خاصة للفلاحين المتأخرين فيما مضى، الفلاحين البطريركيين في بلدان الشرق .

اطراد تعزيز وتطوير النظام الكولخوزي .

ان التحويل الاشتراكي للاقتصاد الزراعي في آسيا الوسطى، شأنه شأن بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي ككل، لم ينته كليا في اواسط العقد الرابع. لقد اقتضى الأمر جهودا غير قليلة كيما يتطور ويتعزز النظام الاشتراكي في الريف بصورة نهائية .

نحو نهاية العقد الرابع، استقر طراز واحد من الاقتصاد الجماعي في آسيا الوسطى وفي الاتحاد

السوفييتي بأسره ـــ التعاونية الزراعية . فقد انتقلت الى نظامها الداخلي تدريجيا كل الجمعيات السابقة للفلاحة المشتركة للارض . ودامت هذه الجمعيات اكثر ما دامت في مناطق تربية المواشي . ولقد ظهرت التعاونية في الظروف السوفييتية في فترة الاشتراكية انجح شكل للاقتصاد الجماعي ، حيث جرى الجمع بصورة حسنة بين مصالح الاقتصاد الاجتماعي ومصالح الكولخوزيين الفردية . وهذا لا يعني في حال من الاحوال ، بالطبع ، انه يجب نقل نظامها الداخلي بصورة ميكانيكية الى جميع البلدان الاخرى التي تسلك طريق بناء الاشتراكية .

ان الحزب والحكومة السوفييتية ، باستنادهما الى قوة الصناعة السوفييتية المتعاظمة ، ضمنا الريف الكولخوزي في آسيا الوسطى باحدث التكنيك الزراعي . ففي جمهورية اوزبكستان الاشتراكية السوفييتية وحدها ازداد عدد الجرارات منذ عام ١٩٤٠ حتى عام ١٩٥٩ من ٢٣٦٠٠ الى ٦٩٣٠٠ . ونتيجة عمل السنين العديدة الدوءوب ، حلت مشكلة اعداد الملاكات الكفوءة

للاقتصاد الزراعي . وتحولت الكولخوزات الى استثمارات قوية اقتصاديا ومتعددة الفروع . وقد احرزت الكولخوزات في آسيا الوسطى نجاحات كبيرة على الاخص في السنوات الاخيرة . ويكفي القول ان جمع القطن في الاتحاد السوفييتي في هذه السنوات ازداد من ٣,٨ ملايين طن الى ٥,٢ ملايين طن ان النجاحات المحرزة ضمنت امكانية التطور اللاحق للنظام الكولخوزي . اولا ، كبرت الكولخوزات بصورة ملحوظة في سنوات ما بعد الحرب عن طريق توحيد عدة كولخوزات صغيرة متجاورة . ثانيا ، ان التعزيز الاقتصادي للكولخوزات مكّن الدولة السوفييتية من تصفية محطات الآلات والجرارات في عام ١٩٥٨ وبيع التكنيك الزراعي مباشرة الى الكولخوزات ذاتها ، الأمر الذي زاد من استقلالها الاقتصادي .

ان انتصار النظام الكولخوزي وتطوره اللاحق في آسيا الوسطى ضمنا انعطافا جذريا في الاقتصاد الزراعي تبيّن نتائجه بوضوح اي تقدم يجلب للفلاحين الانتقال الى طريق التطور الاشتراكي .

كان عدد الاستثمارات الفلاحية الفردية في آسيا الوسطى قبل الثورة قرا بة مليون ونصف المليون ، تملك زهاء ٧٠٠ الف محراث خشبي بدائي وعددا ضئيلا من الادوات الزراعية العصرية . ان انعدام الارض ، والمحصول المنخفض ، والاستثمار حكمت على السواد الاعظم من الفلاحين بحياة شبه بائسة .

وفي عام ١٩٦١ ، كان في آسيا الوسطى ١٩٢١ كولخوزا . وكانت حصة الكولخوز وسطيا ٦٠٧ عائلات و ١٩٦٦ هكتارا من الاراضي المزروعة ، وكذلك ٨١٢٨ رأسا من الماشية المنتجة ، دون حساب قطع الارض المزروعة والماشية التابعة للكولخوزيين شخصيا . علاوة على هذا ، كان يوجد ٣٩٩ سوفخوزا كبيرا لزراعة الحبوب وزراعة القطن وتربية الماشية وغيرها من السوفخوزات . ويملك بعض سوفخوزات تربية الماشية ٥٠ الفا او اكثر من رؤوس الغنم . ويمارس الاقتصاد الزراعي الاشتراكي في آسيا الوسطى على اساس التكنيك العصري واحدث منجزات العلم؛ وكان لدى هذا الاقتصاد في سنة ١٩٦١ نفسها ١٢٧٨٠٠

جرار (القوة الوسطية لكل منها ١٥ حصانا)، وقرابة سبعة آلاف حاصدة دارسة للحبوب، وعدد كبير من الحفارات والبولدوزيرات وغيرها من آلات حفر الارض، والطائرات وطائرات الهيليكوبتر الخاصة بالطيران الزراعي، وكمية هائلة من التكنيك الزراعي الآخر الذي تقدمه الصناعة الاشتراكية الجبارة في الإتحاد السوفييتي بسخاء للكولخوزات والسوفخوزات. وتسمد الحقول بمئات آلاف الاطنان من الاسمدة المعدنية. وكان يقوم على خدمة الاقتصاد الزراعي في آسيا الوسطى عام ١٩٦١ جيش كامل من المهندسين الزراعيين والاختصاصيين في تربية الحيوانات والاطباء البيطريين، الذين يبلغ عددهم بالعام قرابة ١٦ الف اختصاصي بتحصيل عال واكثر من ٢٢ الفا بتحصيل ثانوي مختص. واغلبيتهم من القوميات المحلية. وانتشرت في عدد من المناطق الريفية حركة تدريب الشغيلة جميعا على سواقة الجرار والسيارة.

وتؤلف نسبة الكولخوزات المكهربة في جمهوريات آسيا الوسطى من ٧٠٪ الى ٩٠٪. ويجري الآن

حرث وبذر جميع الاراضي المزروعة بالآلات . فقد تمت كليا مكننة عملية فلاحة وجمع محاصيل الحبوب ، كما وتمت مكننة عملية فلاحة نبات القطن ١٠٠٪ تقريبا ، وينتشر جمع القطن بالآلات انتشارا سريعا.

وبنتيجة البناء الواسع لمنشآت الري ، ازدادت المساحة العامة للاراضي المزروعة في آسيا الوسطى منذ عام ١٩١٣ اكثر من الضعف وتجاوزت ٥,٥ ملايين هكتار .

ولكن القضية لا تقتصر فقط على توسيع المساحات المزروعة . فالممارسة العلمية للاقتصاد تمكن من الحصول على منتوجات من قطعة الارض نفسها تزيد كثيرا عنها في الماضي . واستنبت الاختصاصيون السوفييت انواعا من نبات القطن اكثر مردودا ، وربوا اجناسا من الماشية اكثر منتوجا . فقد ازداد مردود القطن من ٧ الى ٢٠ — ٢٥ كنتالا من الهكتار ، وازداد انتاج القطن الاجمالي الى ٧,٥ مرات . وارتفع كذلك بصورة ملحوظة مردود المحاصيل الاخرى . وازداد عدد رؤوس الماشية وبلغ حتى عام ١٩٦٢ قرابة ٢٨

مليون رأس ، وارتفع منتوج الماشية . وجرت مكننة عملية ضخ المياه من الآبار العميقة ، وصار يخزن العلف من اجل فصل الشتاء ، واصبحت تزوّد فرق الرعاة في المراعي الصحراوية والجبلية النائية بالمساكن الدافئة المريحة ومحطات الراديو المتنقلة ، وغالبا ما أخذت تزورهم المكتبات واجهزة السينما المتنقلة .

ان التحويل الاشتراكي للاقتصاد الزراعي والقضاء على الاستثمار والنهوض الحاد في الانتاج الزراعي — كل هذا ضمن رفع المستوى المادي لفلاحي آسيا الوسطى . وذهبت الى غير رجعة حياتهم الماضية شبه البائسة . ويزيد الدخل الوسطي السنوي للكولخوز على ٦٠٠ الف زوبل يحسم منها قرابة ٢٥٪ الى الصندوق الثابت ، وما تبقى يوزع على الكولخوزيين . وتعيش اغلبية الكولخوزيين الآن في بيوت جديدة مريحة من الطراز الاوروبي او القومي . وثمة بلدات كولخوزية وسوفخوزية كثيرة تشابه المدن من حيث توفر وسائل الراحة . ففيها توجد المدارس والاندية

والمستوصفات ودور الولادة ودور الحضانة ومحطات الراديو المحلية الحسنة جميعها ؛ والشوارع مضاءة بالكهرباء ، وهنالك كولخوزات كثيرة تبني الملاعب ودور السينما . وعادة يصادف المرء في بيوت الكولخوزيين اجهزة الراديو وماكينات الخياطة والدراجات ، البسيطة منها والنارية ، ويشتري كثيرون اجهزة التلفيزيون والثلاجات ويركبّون في بيوتهم الافران الغازية . وتمحي تدريجيا الفروق الجوهرية بين المدينة والقرية .

يتطور الاقتصاد الزراعي في آسيا الوسطى بلا انقطاع . ففي تركمانيا ، شقت قناة قره ـ قوم وطولها ٨٠٠ كيلومتر ـ انها نهر اصطناعي كامل! ويجري بناء واسع كذلك لمنشآت الري الكبيرة في اوزبكستان وطاجيكستان : فقد بنيت عدة خزانات كبيرة للمياه ـ يتسع كل منها لمئات ملايين الامتار المكعبة من الماء ـ وهي كاتا ـ كورغان ، كوب ـ مزار وغيرهما ، وشقت قناة فرغانة الكبيرة وطولها ٢٧٠ كيلومترا ، وعشرات غيرها ، ورويت مئات آلاف الهكتارات في «السهوب الجائعة» وفي وادي الوحش ، وتشق

الاقنية لري سهوب كارشي ، ويبنى خزان تشاردارزيا الهائل الذي يتسع لـ ٥,٧ مليارات متر مكعب من الماء . كل هذا سيمكّن في السنوات القريبة المقبلة من فلح ما لا يقل عن مليوني هكتار من الاراضي الخصبة ، ومن الزيادة الملحوظة لانتاج جميع انواع المنتوج الزراعي في آسيا الوسطى - القطن والحبوب والحرير والفواكه والعنب والصوف واللحم والفرو الاسترخاني - ومن رفع المستوى المادي لحياة فلاحي آسيا الوسطى اكثر فاكثر .

على هذه الصورة ، فان شعوب آسيا الوسطى ، اذ استفادت من المساعدة الاخوية التي قدمتها اليها الجمهوريات الاخرى في الاتحاد السوفييتي ، تمكنت في فترة تاريخية قصيرة ، في غضون حياة جيل واحد ، من التغلب على تأخرها الاقتصادي الموروث عن الاقطاعية والعبودية الاستعمارية . لقد احرزت هذه النجاحات التاريخية الهائلة بفضل افضليات النظام الاجتماعي الاشتراكي ونظام الدولة الاشتراكي : التطور المبرمج للاقتصاد ، تحالف الطبقة العاملة

والفلاحين ، الصداقة والعون المتبادل بين شعوب الاتحاد السوفييتي ، وبفضل قيادة الحزب الشيوعي الصحيحة القائمة على العلم .

ومن اجل بناء القاعدة المادية والتكنيكية للاشتراكية في آسيا الوسطى المتأخرة اقتصاديا اقتضى الأمر قبل كل شيء التصنيع الاشتراكي ، تطوير الصناعة الحكومية الكبيرة . لقد حل التصنيع الاشتراكي في آن واحد بضع مهمات هامة : اولا ، قضى على التخلف الاقتصادي في آسيا الوسطى، محولا اياها من ملحق زراعي يمد روسيا المركزية بالخامات الى منطقة صناعية زراعية متقدمة ؛ ثانيا ، ضمن اعادة البناء التكنيكي للاقتصاد الزراعي ، وتزويده بالتكنيك والاسمدة المعدنية ، الخ .؛ ثالثا ، انشأ الطبقة العاملة الاهلية مما اشترط تعزيز تحالف الطبقة العاملة في الاتحاد السوفييتي مع الفلاحين الاهليين في آسيا الوسطى وتعزيز الدولة الاشتراكية — ديكتاتورية البروليتاريا ؛ رابعا ، ادى الى ازاحة القطاع الرأسمالي الخاص الضعيف في آسيا الوسطى ، لان مؤسسات

الرأسماليين الخاصة الصغيرة المتخلفة لم تستطع الصمود في المزاحمة امام الصناعة الاشتراكية الكبيرة المجهزة باحدث التكنيك.

ان اهم واصعب مهمة في ظروف التطور اللارأسمالي في آسيا الوسطى كانت مهمة التحويل الاشتراكي للاقتصاد الزراعي. فمن اجل ان تسلك جماهير الفلاحين البطريركيين المتأخرين الذين لم يفقدوا جزئيا بعد التنظيم القبلي طريق الاشتراكية، تطلب الأمر القيام باجراءات تمهيدية معقدة: تحسين وضعهم الاقتصادي؛ مساعدتهم على التحرر من الظلم الاقطاعي؛ وفي الوقت نفسه من نفوذ الاقطاعيين السياسي؛ وتنظيمهم في ابسط انواع التعاونيات ومنظمات الفلاحين النقابية والسياسية (اتحاد «الحراث» وغيره). الا انه بعد هذا ايضا، تطلب القيام باشاعة التعاونيات الواسعة وتعزيز الكولخوزات تنظيميا واقتصاديا المساعدة الواسعة الشاملة والقيادة من جانب الحزب الشيوعي والحكومة السوفييتية

والطبقة العاملة . ان طريق فلاحي آسيا الوسطى نحو الاشتراكية أكد مرة اخرى صحة المبادئ الاساسية في البرنامج التعاوني اللينيني – طوعية ومثابرة انتقال الفلاحين من ابسط اشكال التعاونيات التموينية والتصريفية وتعاونيات التسليف الى جمعيات الفلاحة المشتركة للارض ، وفيما بعد الى اعلى اشكال التعاونيات الزراعية :

لقد أدى التحويل الاشتراكي للاقتصاد الزراعي الى ازاحة بقايا العلاقات الاقطاعية في ريف آسيا الوسطى ، الى زوال القطاع البضاعي الصغير والقطاع البطريركي الطبيعي . ان الاقتصاد الزراعي في آسيا الوسطى ، المتخلف فيما مضى ، اصبح اقتصادا متقدما ، اشتراكيا ، قائما على احدث التكنيك وعلى العلم الزراعي .

وهكذا ، فان تصفية التخلف الاقتصادي في جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية لم تعن فقط نهوضا كميا للاقتصاد الوطني ، فقد كانت مرتبطة بتغيرات جذرية كيفية في المجتمع . لقد زالت

الطبقات المستثمرة، وبقيت على المسرح التاريخي في آسيا الوسطى طبقتان صديقتان ــ الطبقة العاملة وطبقة الفلاحين ــ وفئة هي فئة المثقفين الكادحين. وأخذ الاقطاعيون والمرابون والتجار السابقون يمارسون النشاط العملي كل حسب كفاءاته.

ان تصفية التخلف الاقتصادي في آسيا الوسطى في ظروف الاشتراكية ضمن ارتفاع رفاه الشغيلة المادي بصورة ملحوظة. فقد زالت البطالة، ولم يبق في الريف فلاحون بلا ارض، وانعدم استثمار الانسان للانسان. وضمن التطور الناجح للانتاج الاشتراكي الارتفاع المستمر لاجور العمال الفعلية ولمداخيل الكولخوزيين. وانعتق الناس من القلق المضني على ما سيكون عليه الغد.

ان التطور الاقتصادي لجمهوريات آسيا الوسطى الاشتراكية يؤدي اكثر فاكثر الى تقاربها. فقد أصبحت تقليدا منذ أمد بعيد المباراة الاشتراكية بين زراع القطن في آسيا الوسطى. وفي كل سنة، تقوم فرق الضبط المتبادل، المكونة من خيرة الماهرين

في جمع المحصول ، تقوم بزيارة الجمهوريات المجاورة وتدرس حالة المزروعات وتتبادل الخبرة الطليعية . ويجري بناء منشآت كثيرة كبيرة للري بصورة مشتركة مع الجمهوريات المجاورة . مثلا، تقوم جمهوريات اوزبكستان وتركمانيا وقراقالباقيا سوية بتطوير واتقان منظومة الري في واحة خوارزم . وقد عمل ممثلو ٣٦ قومية بحماس فائق في شق قناة قره - قوم . وتساعد كل جمهوريات الاتحاد السوفييتي في بناء محطة نوريك الكهرمائية . ان صداقة الشعوب تساعد على تذليل اكثر الكوارث الطبيعية هولا . فعندما احدق خطر كارثة الفيضان بسبب ردم هائل من الجبال سد مجرى نهر زيرافشان في جمهورية اوزبكستان في ربيع عام ١٩٦٤ ، هبت البلاد بأسرها للنجدة. فنقلت الطائرات من جميع الجمهوريات الاختصاصيين والمواد الضرورية ، وفي فترة قصيرة صفي الخطر . وتشتد بصورة دائمة عملية التبادل الثقافي والاغناء المتبادل والتقارب بين الثقافات القومية .. ومنذ أمد بعيد ذهبت الى غير رجعة الخصومات القديمة بين

القوميات ، والنزاعات بسبب الحدود ، وما الى ذلك من الادعاءات الاقليمية . ان كل امم آسيا الوسطى تعمل بصورة ودية على ارض آسيا الوسطى الخصبة .

في ظروف التقارب النامي بين الامم الاشتراكية ، يتسم بأهمية كبيرة على الاخص تنسيق وتوحيد جهود شعوب الاتحاد السوفييتي في مجرى حل المهمات المشتركة المرتبطة ببناء الشيوعية . وانطلاقا من هذا الهدف ، أسست في نهاية عام ١٩٦٢ في آسيا الوسطى من جديد هيئات تشترك فيها جميع الجمهوريات — مكتب آسيا الوسطى في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي ، ومجلس الاقتصاد الوطني في آسيا الوسطى ، وغيرهما من الهيئات . ان هذا يضمن التقارب بصورة اكثر فاكثر بين جمهوريات آسيا الوسطى الشقيقة ونجاحاتها الجديدة في مجالي الاقتصاد والثقافة .

٦. الثورة الثقافية في آسيا الوسطى

ان تحقيق الثورة الثقافية — تصفية امية السكان البالغين، تطبيق نظام التعليم العام الالزامي للاطفال ، انشاء منظومة عصرية لوقاية الصحة ، تطوير العلم والفن ، انشاء ملاكات عديدة من المثقفين الاهليين ، تحرير المرأة ، ادخال نمط حياة جديد — هو سمة ملازمة لبناء الاشتراكية في جميع البلدان المتخلفة فيما مضى من الناحية الاقتصادية . ويجب ان يقترن تذليل التأخر الثقافي بالتربية السياسية لجماهير الشغيلة ، وبنشر الايديولوجية الماركسية - اللينينية.

تصفية امية السكان البالغين وتطبيق نظام تعليم الاطفال العام في آسيا الوسطى. ان معرفة الجماهير الشعبية للقراءة والكتابة تؤلف اساس الثقافة . فالانسان الامي لا يستطيع ادارة الآلات المعقدة، ولا يفهم تعقيدات الوضع السياسي . ولهذا ، فان النضال في سبيل تصفية الامية، والتعليم العام للاطفال

يؤلف أساس الثورة الثقافية . ولكن هذه المهمة ليست بالسهلة . فمن اجل حلها من الضروري توفر ملاكات التدريس الاهلية التي كانت معدومة تقريبا في آسيا الوسطى في السابق . ولذا أخذ الحزب الشيوعي يحضر هذه الملاكات في غضون بضع سنوات ، ووسعت تدريجيا ، بمقدار انشاء هذه الملاكات ، شبكة المدارس ..

حتى نهاية العقد الثالث، انشئت الظروف التي هيأت الهجوم الحازم في الجبهة الثقافية . ففي المدن والقرى ، عملت مئات الحلقات والمدارس لتصفية الامية . وجرى اصلاح اللغة الكتابية عند شعوب آسيا الوسطى.

وبدأت المرحلة الحاسمة من الثورة الثقافية في آسيا الوسطى في عامي ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ .

فمنذ خريف عام ١٩٢٩، أعلنت حملة واسعة في سبيل الثقافة («حملة الثقافة») ـ وهي حركة من اجل تصفية الامية . واشترك في حملة الثقافة عشرات آلاف المتطوعين من المدرسين ، والشيوعيين

والكومسومولييين المثقفين ، وتلامذة الصفوف العليا، الخ .. وأسست في المدن والقرى آلاف وعشرات الآلاف من الحلقات والفرق الصغيرة التي كان هؤلاء المتطوعون يعلمون فيها الاميين . كما طبق تطبيقا واسعا اسلوب التعليم الفردي . ومراعاة للعادات القديمة الباقية بعد ، والتي لا تسمح للنساء بمجالسة الرجال الغرباء ، أسست في القرى حلقات نسائية منفردة هيئة التدريس فيها من النساء . لقد كانت هذه الحركة حركة جماهيرية حقا ، شملت الشعب بأسره . ففي عامي ١٩٣٠ — ١٩٣١ فقط ، جرى في آسيا الوسطى تعليم اكثر من مليون امي ، في الاساس من الفلاحين .. وبفضل المساهمة النشيطة من جانب الهيئات الاجتماعية الواسعة ، صفيت من حيث الاساس امية السكان البالغين في آسيا الوسطى تصفية سريعة .

وفي ٢٥ تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ ، اتخذت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي قرارا يقضي بتطبيق

التعليم العام الابتدائي (اربع سنوات) الالزامي للاطفال.
وبنتيجة العمل الهائل الذي قامت به اللجان الحزبية وهيئات التعليم العام ، انجز اعداد ملاكات التدريس الضرورية بصورة ملحة . كان اعداد المدرسين في الآونة الاولى يجرى في دورات قصيرة. وفي آن واحد ، أسست شبكة واسعة من مدارس المعلمين التي ضمنت بعد مرور ٥ ــ ٦ سنوات ، المدرسة الابتدائية بالعدد اللازم من المعلمين . وفي الوقت نفسه ، اتسعت عملية بناء المدارس بجهود الهيئات الحكومية والاجتماعية .

في عام ١٩٥٨ ، زاد عدد المتعلمين في مدارس آسيا الوسطى عنه قبل الثورة باكثر من ٧٢ مرة (في الاتحاد السوفييتي ككل ، لم يزد الا الى ٣,٣ مرات).
وانتشرت انتشارا واسعا مدارس العمال والشبيبة الريفية، التي كانت تجري فيها الدراسة في المساء ، دون الانقطاع عن الانتاج . وانتقلت جميع جمهوريات آسيا الوسطى من التعليم الابتدائي الالزامي الى تعليم السبع سنوات الالزامي للاطفال.

مما يدل على توسيع العمل الموجه للتعليم العام في آسيا الوسطى في سنوات بناء الاشتراكية ، انه كان يتعلم في عام ١٩٣٧ في تركمانيا ، مثلا ، حيث السكان كانوا آنذاك اكثر بقليل من مليون و٢٠٠ الف نسمة، في المؤسسات الدراسية وفي مختلف الدورات ٤٢٣٥٠٠ شخص ، واذا اضفنا الى هذا المستمعين في حلقات « الحد الادنى للمعارف التكنيكية اللازمة » في المؤسسات ، ومختلف حلقات دراسة الطرق الزراعية والميكانيك الزراعي وغيرها من الحلقات في المناطق الريفية ، لتبين ان الدراسة المتنوعة كانت تشمل نصف سكان تركمانيا تقريبا . لقد كانت هذه ثورة ثقافية حقيقية!

كان التعليم يقترن في كل مكان اقترانا وثيقا بالتربية الشيوعية للشغيلة واطفالهم ، وبنشر الايديولوجية الماركسية - اللينينية. فقد كانت كل مدرسة في الوقت نفسه مركزا لاعمال التحريض والدعاية وللعمل الثقافي التنويري بين السكان المجاورين. وكان

دور المدارس الريفية عظيما بصورة خاصة في هذا المجال.

نتيجة لاعادة البناء الجذرية لقضية التعليم العام تغلبت آسيا الوسطى في فترة تاريخية قصيرة على تخلفها عن بلدان العالم المتقدمة.

تنوير الشعب سياسيا. لقد تطلب بناء الاشتراكية بالا يكتفي الشغيلة بمعرفة القراءة والكتابة وحسب، بل ان يكونوا ايضا مهيئين سياسيا وبناة واعين للحياة الجديدة. ولذا اعار الحزب اهتماما كبيرا لتنوير الشعب سياسيا.

في العقد الثالث، عندما كانت اغلبية شغيلة آسيا الوسطى من الاميين، اتسمت بأهمية كبيرة اشكال للعمل مثل التحريض الشفهي والدعاية باللغة الام (الاحاديث والخطابات والمحاضرات، الخ.)، وقراءة الصحف والكراسات بصوت عال، واشكال مختلفة من الدعاية البيانية – لافتات تحمل الصور الكاريكاتورية، لوحات فنية، وهلمجرا. ومنذ نهاية العقد الثالث، انتشر انتشارا هائلا

الراديو الذي سرعان ما اقبل عليه فلاحو آسيا الوسطى.

ان نجاحات التعليم العام في العقد الرابع زادت من أهمية الصحف والمجلات والكتب الصادرة باللغات القومية في آسيا الوسطى. وقد خصصت الدولة السوفييتية اموالا ضخمة لتطوير الصحافة الوطنية وصناعة الطباعة في جمهوريات الشرق السوفييتي. واصبحت الكتب والصحف الصادرة باللغة الأم ترافق على الدوام فلاح آسيا الوسطى ليس في البيت وحسب، وانما ايضا في الحقل وفي المراعي النائية.

واكتسبت السينما أهمية تربوية كبيرة، لا سيما بعد ان ظهرت الافلام المدبلجة باللغات المحلية، وفيما بعد الافلام التي كانت تخرجها ستوديوهات السينما في آسيا الوسطى. وأخذت تتمتع بشعبية واسعة مختلف المؤسسات الثقافية التنويرية — النوادي الريفية، المكتبات، قاعات المطالعة، الخ..

وفي عام ١٩٦١، كان في آسيا الوسطى ٤٢٦٤

منشأة سينمائية ، و٦٨١٨ مكتبة عامة ، وقرابة ستة آلاف من مختلف مؤسسات النوادي.

ولعبت دورا هاما في تنوير الشعب سياسيا وفي تربية الشغيلة بروح الشيوعية ترجمة مؤلفات كلاسيكيي الماركسية - اللينينية وغيرها من الآداب الاجتماعية السياسية الى اللغات القومية. فقد ترجمت بالدرجة الاولى مقالات وكلمات لينين حول العمل في الريف، حول التعاون ، حول المسألة القومية. وقد أسست دور للنشر حزبية خاصة في كافة جمهوريات آسيا الوسطى تنشر الادب الماركسي باللغات القومية ، وانشئت ملاكات من المترجمين والمحررين الضليعين. وكثيرا ما كان يستدعى لهذا العمل ابرز العاملين في المنظمات الحزبية وفي السوفييتات. وجرت في العقد السادس في كافة جمهوريات آسيا الوسطى ترجمة مجموعة مؤلفات لينين ومؤلفات ماركس وانجلس الاساسية الى اللغات القومية.

ونتيجة للنضال العنيد ضد ايديولوجية المجتمع القديم الرجعية ، انتصرت كليا في آسيا الوسطى وسادت

النظرة الثورية الماركسية ـ اللينينية الى العالم . وبقيت الآراء والتصورات القديمة بشكل مخلفات ضارة في وعي الناس . ولكن هذه المخلفات قابلة لان تحيا طويلا ، ولذا فان الحزب يواصل النضال ضدها بصورة دائمة ، ساعيا الى تصفيتها تصفية نهائية.

انشاء منظومة عصرية لوقاية الصحة. كان النضال في سبيل التحسين الجذري لمنظومة وقاية الصحة احد الاتجاهات الهامة للثورة الثقافية في آسيا الوسطى . وقد تطلب انشاء منظومة عصرية لوقاية الصحة مخصصات كبيرة جدا من جانب حكومة الاتحاد السوفييتي ، ومساعدة واسعة بالملاكات الطبية من قبل جمهوريات الاتحاد السوفييتي الشقيقة.

ونتيجة لهذه المساعدة ، تغيرت حالة وقاية الصحة في آسيا الوسطى . فعلى ابواب عام ١٩٦١ ، ازداد عدد الاطباء في جمهوريات آسيا الوسطى الى ١٠٢ مرة بالمقارنة مع عام ١٩١٣ . وكانت تضم المستشفيات الموجودة في جمهوريات آسيا الوسطى ٨٥٣٠٠ سرير . وفي آسيا الوسطى

الآن ، طبيب لكل ۷۰۰ نسمة من السكان تقريبا، وهي تحتل في هذا المجال احد الاماكن الاولية في العالم . ويضمن الاسعاف الطبي التام ليس فقط سكان المدن ، وانما سكان الريف كذلك . ولقد ازاح الطب العلمي الدجل بصورة نهائية.

وخاض العاملون في ميدان الطب في آسيا الوسطى نضالا عنيدا ضد الاوبئة وغيرها من الامراض المعدية. فاسست لهذا الغرض فرق طبية خاصة وبعثات طبية لخدمة الاماكن الريفية ، لا سيما مناطق الرحل والمناطق الجبلية . ان هذه البعثات والفرق المكونة آنذاك من الاطباء الروس في الأساس ، لم تقم بتقديم المساعدة الطبية لسكان الريف وحسب ، وانما اكتشفت ودرست كذلك بؤر الامراض المعدية ، وقامت بعمل صحي دعائي كبير ، وأعدت الملاكات المحلية . فحتى في العقد الرابع كانت قد احرزت نجاحات حاسمة في مكافحة الامراض المعدية التي كانت لقرون عديدة سوطا يلهب ظهر شعوب آسيا الوسطى . ولقد صفيت في الوقت الحاضر ، تصفية

تامة تقريبا ، امراض كانت متفشية في السابق مثل الجدري والتيفوس والتراخوما والملاريا.

واعير اهتمام كبير لرعاية الامومة والطفولة. واتسم هذا في آسيا الوسطى بأهمية هامة على الاخص نظرا لوضع المرأة المهين في الماضي. ففي قرى آسيا الوسطى قبل الثورة ، لم تكن لدى الناس اي فكرة عن دور الولادة ودور الحضانة . ولذا ، فان نسبة الوفيات بين الامهات والاطفال كانت عالية جدا . اما الآن ، فان كل هذا قد ذهب الى غير رجعة . وفي عام ١٩٦١ ، كان في آسيا الوسطى ٩٣٥ مركزا للاستشارات الطبية المتعلقة بالنساء ، واكثر من ١٥٠٠٠ سرير في دوز الولادة ، و٩٣٥٠٠ مكان في دور الحضانة الدائمة . ومنذ بداية العقد الرابع ، انتشر كذلك تنظيم دور الحضانة الموقتة، لفترة الاعمال في الحقل . والآن ، فان مثل هذه الدور قد دخلت في الحياة وتؤسس سنويا في جميع الكولخوزات والسوفخوزات.

واحرزت الهيئات السوفييتية والحزبية في جمهوريات آسيا الوسطى نجاحات كبيرة في الحركة الرياضية الجماهيرية، لا في المدن وحسب ؛ بل في الاماكن الريفية من آسيا الوسطى كذلك . وتعمل في كافة الجمهوريات والمدن والنواحي المنظمات الرياضية المتطوعة . وبجانب اشكال الرياضة العالمية المنتشرة هنا ، تطورت كذلك اشكال الرياضة الوطنية : سباق الخيل ، ومختلف الالعاب الرياضية التي يمارسها الخيالة ، والمصارعة القومية « غوريش »، وغيرها.

نشوء فئة المثقفين الاهليين ، تطوير العلم والفن. قبل الثورة ، كان في آسيا الوسطى قليل جدا من المثقفين المحليين، لا سيما من المثقفين التكنيكيين . ولذا لعبت دورا كبيرا جدا في البناء الاشتراكي ، كما قيل اعلاه، الملاكات الكفوءة من الجمهوريات الاخرى . وفي العقدين الثالث والرابع ، كانت اغلبية المهندسين والمهندسين الزراعيين والاطباء في آسيا الوسطى تتألف من الاختصاصيين الذين قدموا

من روسيا واوكرانيا وجمهوريات ما وراء القفقاس. ولكن منذ السنوات الاولى للبناء السلمي ، بذل الحزب الشيوعي والسلطة السوفييتية جهودا كبيرة لانشاء فئة مثقفين منحدرين من قوميات آسيا الوسطى . فقد افتتحت في مدن آسيا الوسطى مؤسسات دراسية عديدة لاعداد المدرسين والاطباء المحليين.

ان اعظم حدث في الحياة الثقافية في آسيا الوسطى هو افتتاح الجامعة الحكومية التركستانية (فيما بعد ــ جامعة آسيا الوسطى) في طشقند، عام ١٩٢٠. وقد وقع لينين العظيم نفسه المرسوم المتعلق بتأسيس هذا المركز العلمي الكبير في المستعمرة المتأخرة سابقا . وقد نقل قطاران خاصان من روسيا الى الجامعة الجديدة المدرسين، وكذلك التجهيزات والكتب التي قدمتها هدية لها الجامعات القديمة في موسكو وغيرها من المراكز العلمية في البلاد السوفييتية . وقد استقبل شغيلة طشقند الاختصاصيين القادمين استقبالا حافلا . وتحت اشراف هؤلاء الاختصاصيين أخذت تنشأ ملاكات التدريس المحلية.

وفي العقد الرابع ، أسست في كافة جمهوريات آسيا الوسطى مدارس المعلمين والمعاهد الزراعية والطبية وغيرها من المعاهد . وتوجه عدد كبير من شبيبة آسيا الوسطى للدراسة في مؤسسات التعليم العالي في روسيا حيث كان طلبة آسيا الوسطى يقبلون بدون مسابقة ، وذلك تسهيلا لهم . وتملك آسيا الوسطى في الوقت الحاضر ٤٧ مؤسسة دراسية عالية يبلغ عدد طلبتها ١٧٠ الفا . وهؤلاء هم في الاساس من ممثلي القوميات المحلية . ومن حيث عدد الطلبة لكل عشرة آلاف نسمة من السكان فان اوزبكستان، على سبيل المثال ، تتجاوز فرنسا باكثر من الضعف؛ وتسبق كذلك انكلترا والولايات المتحدة الاميركية.

لقد مكّن تطور التعليم العالي من ضمان جمهوريات آسيا الوسطى ضمانا تاما بالعدد الضروري من الاختصاصيين ذوي الكفاءة العالية . وفي الاول من كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٦١ ، كان يعمل في آسيا الوسطى التي يبلغ عدد سكانها ١٦ مليون نسمة ٢٠٢ الف اختصاصي بتحصيل عال ، من ضمنهم ٢٢

الف طبيب ، ٣٦ الف مهندس ، ١٧ الف مهندس زراعي ومختص بتربية الحيوانات وطبيب بيطري، وزهاء ١٠٠ الف مدرس وعامل في ميدان الثقافة . ان ما لا يقل عن نصف هؤلاء هم من ممثلي القوميات المحلية.

لقد تطلب تطور الاقتصاد والثقافة في جمهوريات آسيا الوسطى انشاء المؤسسات العلمية الضرورية فيها: محطات الاختبارات الزراعية والمحطات الاختبارية من الفروع الاخرى ، معاهد الابحاث العلمية الزراعية والطبية وغيرها من معاهد الابحاث العلمية ، الخ.. وفي عام ١٩٣٨ ، كان يعمل في آسيا الوسطى ١١٧ من المعاهد العلمية و٤٥ من المحطات العلمية ومحطات الاختبار . وفي نهاية العقد الثالث ، ظهر اول العلماء المنحدرين من القوميات الاصلية في آسيا الوسطى — من الاوزبكيين والتركمانيين والطاجيكيين والقرغيزيين . وفي عام ١٩٦١ ، كان يعمل في جمهوريات آسيا الوسطى ٤٤٨٤ عالما يحوزون على درجة دكتور في العلوم او درجة مرشح

في العلوم . وأسست في كافة جمهوريات آسيا الوسطى ، اكاديميات للعلوم يترأسها أبرز العلماء المحليين . والاتجاه الرئيسي في نشاطها هو تقديم المساعدة للانتاج ، واستنباط احدث الاساليب العلمية وتطبيقها في الاقتصاد الوطني . وعدا دراسة مشاكل الاقتصاد الوطني الملحة ، تقوم المؤسسات العلمية في جمهوريات آسيا الوسطى بدراسة تاريخ وآثار وايثنوغرافيا (علم الثقافة المادية والروحية للشعوب) المنطقة ، ودراسة اللغات والآداب والابداع الشعبي والفن عند شعوب آسيا الوسطى.

ان انتصار ثورة اكتوبر وتطور البناء الاشتراكي قد ساعدا على بعث الادب القومي والفن المسرحي والفنون الجميلة وتطورها تطورا سريعا.

وسار تطور الادب عند شعوب آسيا الوسطى في العقد الثالث في جو من النضال الايديولوجي العنيف بين الكتاب الوطنيين ، كتاب العمال والفلاحين ، والكتاب ذوي الاتجاه البرجوازي القومي المتعصب. ففي حين كان الاولون يستفيدون في ابداعهم من

تجربة الادب الروسي السوفييتي (لا سيما من مؤلفات ادباء مثل غوركي ومایاكوفسكي) ، ساعين جهدهم لمساعدة بناء الاشتراكية ، فان الاخيرين ، بالعكس، قد اتجهوا وجهة بلدان الشرق البرجوازية الاقطاعية (تركيا ، ايران) ، جاعلين مثلهم العليا الانظمة الاقطاعية القديمة ، وناهضوا البناء الاشتراكي.

وفي مجرى نجاحات البناء الاشتراكي وتصفية الطبقات المستثمرة كان الاتجاه البرجوازي يفقد اساسه تدريجيا ويضعف . وانتصر في الادب بصورة نهائية اتجاه العمال والفلاحين ، الاتجاه الاشتراكي؛ والماركسية - اللينينية هي الاساس النظري لابداع هؤلاء الكتاب ، وطريقتهم هي الواقعية الاشتراكية.

وفي الوقت نفسه ، فان الكتاب السوفييت من ابناء قوميات آسيا الوسطى لم يعرضوا ابدا عن التراث الادبي الكلاسيكي ، عن التقاليد الادبية لشعوبهم. فقد استفادوا من الاشكال الادبية القديمة ، منقحين اياها بصورة خلاقة . ان السلطة السوفييتية والبحاثين والكتاب السوفييت هم بالذات الذين بعثوا الى الحياة

الكثير من الآثار العظيمة في حضارة آسيا الوسطى العريقة ، التي كانت باقية في ذاكرة الشعب فقط وغير معروفة لدى الأمم الاخرى . وفي ظل السلطة السوفييتية بالضبط ، دونت لاول مرة ونشرت الاساطير والاشعار القصصية المتعلقة بسير الابطال ومآثر شعوب آسيا الوسطى . وتصدر باللغة القومية وباعداد هائلة من النسخ وتترجم الى لغات شعوب اخرى في الاتحاد السوفييتي اشعار كلاسيكيي الادب في آسيا الوسطى ، والقصص والاغاني الشعبية . وبنتيجة عمل عدد من البعثات ، جمعت مجموعات رائعة من آثار الفن القديم وفن القرون الوسطى لشعوب آسيا الوسطى . وتخصص مبالغ كبيرة لصيانة وترميم الآثار التاريخية وآثار الهندسة المعمارية . ان كل هذه التركة الثقافية الغنية اصبحت الآن ملكا للثقافة البشرية عامة.

وانشئت من جديد لدى شعوب آسيا الوسطى الفنون الجميلة والمسرح . ولعب دورا هائلا هنا تأثير الرسامين والنحاتين والفنانين الروس بعد ثورة اكتوبر.

وتطور الفن الفني في آسيا الوسطى ، شأنه شأن الادب، في جو من النضال الطبقي العنيف. فقد ناضل الرسامون والفنانون بكل ما ابدعوه من اجل بناء الاشتراكية وفي سبيل رسوخ الاخلاق الجديدة ، وضد مخلفات العالم القديم. ولذا ، فانهم اثاروا كراهية القوى الرجعية المتقهقرة امام زحف الاشتراكية المظفرة. ففي عام ١٩٢٩ ، قتل الظلاميون مؤسس المسرح القومي الاوزبكي ، الكاتب المسرحي البارز والملحن حمزه حاكم زاده نيازي. وقُتلت كذلك الفنانة الاوزبكية الموهوبة تورسونوي سعيد عظيموفا . ولكن اعمال الارهاب هذه لم تستطع عرقلة تطور الفن السوفييتي عند شعوب آسيا الوسطى. ويكفي القول انه كان يعمل عام ١٩٦١ في جمهوريات آسيا الوسطى ٤٠ مسرحا (في الاساس اهلية).

وتكونت في آسيا الوسطى ملاكات عديدة من المثقفين المبدعين الموهوبين والاوفياء حتى النهاية للشعب.

وتتمتع بشهرة واسعة اسماء المؤرخ الطاجيكي بابوجان غفوروف والكاتب التركماني بيردي كيربابايف ، والكاتب الاوزبكي ورجل الدولة البارز شريف رشيدوف ، والكاتب القرغيزي جنكيز أيتماتوف ، والشاعر الطاجيكي ميرزو تورسون-زاده وكثيرين غيرهم من العلماء والكتاب والرسامين والفنانين الرائعين في آسيا الوسطى.

واصبح تقليدا من تقاليد جمهوريات آسيا الوسطى ، والجمهوريات المتحدة الاخرى على السواء ، التبادل المنتظم لوفود الكتاب والرسامين ، وجولات جماعات الفنانين ، الخ .. وتترجم أبرز المؤلفات الادبية الى لغات الشعوب الاخرى الشقيقة. ان كل هذا يضمن التقارب والاغتناء المتبادل للثقافات القومية عند شعوب آسيا الوسطى والاتحاد السوفييتي بأسره.

تحرير المرأة: لقد الغت السلطة السوفييتية في الاشهر الاولى بعد ثورة اكتوبر كل القوانين القديمة المهينة للمرأة والتي تجعلها غير متساوية في

الحقوق مع الرجل. ولكن في آسيا الوسطى ، كانت النظرات الاقطاعية البطريركية الى المرأة ، بوصفها مخلوقا من الدرجة الدنيا ، راسخة رسوخا وطيدا في وعي جماهير السكان الواسعة ، بمن في ذلك النساء انفسهن.

ولهذا، لم يكن سن القوانين السوفييتية الجديدة التي تلغي عدم المساواة الرسمية للمرأة كافيا لتحريرها تحريرا حقيقيا. ولم تكن القوانين السوفييتية هي التي تحدد الحياة العائلية في السنوات الاولى في آسيا الوسطى ، بل كانت تحددها كالسابق تقاليد آلاف السنين.

ولتحرير المرأة تحريرا فعليا كان من الضروري، اولا ، ايقاظ وعي الجماهير النسائية الواسعة، وان يربى فيهن وعي المساواة مع الرجل في جميع مجالات الحياة الاجتماعية ؛ ثانيا ، التغلب على موقف الاستعلاء القديم الذي يقفه الرجل من المرأة ؛ ثالثا، جذب النساء للاشتراك في الانتاج الاجتماعي وادارة البلاد.

وكان الاتجاه الرئيسي للعمل بين النساء في العقد الثالث هو توضيح ونشر التشريع السوفييتي بصدد الاسرة والزواج ، والعمل التثقيفي ـ التنويري، وجذب نساء القوميات المحلية للعمل في الهيئات الاجتماعية وفي جهاز الدولة . وأسست لدى الهيئات الحزبية اقسام خاصة للعمل بين النساء . قامت بالعمل الاساسي في البدء الشيوعيات الروسيات ، ولكن في النصف الاول من العقد الثالث أخذ يتكون حولهن فريق النساء الطليعيات النشيطات من القوميات المحلية. ان هؤلاء كن بطلات حقيقيات قمن بجرأة بتحدي العالم القديم . وعلى الرغم من المقاومة الضارية التي ابدتها القوى الرجعية ، وبرغم التهديدات وحتى مقتل الكثير من النشيطات، سار وراءهن نحو الحرية والنور آلاف وآلاف النساء الشغيلات في الشرق السوفييتي.

وفي آن واحد مع القيام بعمل توضيحي وتربوي واسع بين النساء ، قامت الهيئات الحزبية والسوفييتية بعمل تربوي كذلك بين الرجال ـ الحاملين للنظرات

الاقطاعية البطريركية الى المرأة. فقد أكد في عدد من قرارات الهيئات الحزبية المحلية بان على الشيوعيين والكومسومولييين ان يناضلوا في سبيل تحرير المرأة لا بالكلام فحسب، وانما ايضا وبالدرجة الاولى، بالمثل الشخصي.

وفي العقد الثالث ، كانت قد احرزت في آسيا الوسطى نجاحات معينة في قضية تحرير المرأة. وقام مكتب آسيا الوسطى في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي (البلشفي) في عامة الاتحاد السوفييتي بحملة واسعة في سبيل تصفية الموقف الاقطاعي من المرأة، جرت تحت شعار : «الى الهجوم ! ». نتيجة لهذا، رمت حجاب الوجه في اوزبكستان وحدها عام ١٩٢٧ قرابة مئة الف امرأة. وجرى ترفيع زهاء سبعة آلاف امرأة الى المناصب الحزبية والسوفييتية القيادية ، وبعثت للدراسة ثمانية آلاف امرأة . وازداد عدد الشيوعيات من القوميات المحلية ، وعدد النساء في تركيب السوفييتات المحلية.

ولعب دورا كبيرا في تحرير المرأة اصلاح الارض

والري في آسيا الوسطى ، الذي وزعت الارض اثناءه ، رغم العادات ، على آلاف الاستثمارات النسائية المستقلة . وفي العقد الثالث ، بدأت ايضا اشاعة نظام التعاون بين النساء الحرفيات (صانعات السجاد ، الحائكات، الخ..) .

واحرزت نجاحات حاسمة في قضية تحرير المرأة على اساس تحقيق التصنيع الاشتراكي واشاعة التعاونيات الزراعية . فقد رافق تأسيس صناعة النسيج والخياطة وصناعة المواد الغذائية وعدد آخر من الفروع الصناعية ، رافقه تشكيل ملاكات اهلية عديدة من العاملات . واصبحت كومبينة (مجمعة) النسيج في طشقند ، عاصمة اوزبكستان اكبر مصنع لتحضير الملاكات النسائية الاهلية واحتلت المرأة في الكولخوزات بعد تصحيح اخطاء السنوات الاولى (في الوقت الذي كثيرا ما كانت تسجل فيه ايام عمل المرأة لزوجها) ، احتلت مكانا مشرفا في الانتاج الاجتماعي . وفي العقد الرابع ، جرت تغيرات حاسمة في التعليم النسائي . فاذا كانت التلميذات في آسيا الوسطى ، في الاماكن الريفية ، لا

يؤلفن قبل هذا سوى اقلية ضئيلة بين التلامذة ، فانهن الآن يدرسن جميعهن في المدارس على قدم المساواة مع التلاميذ. ويدرس كذلك في مؤسسات التعليم العالي في آسيا الوسطى الكثير من فتيات القوميات المحلية . كل هذا يعني ان الحزب الشيوعي قد حل بنجاح مهمة تحرير المرأة في آسيا الوسطى ككل .

ان الثورة الثقافية التي تمت في آسيا الوسطى في سنوات بناء الاشتراكية قد ادت الى انتصار الايديولوجية الماركسية واوصلت شعوب آسيا الوسطى في مجالات التعليم ووقاية الصحة والعلم والفن الى مستوى البلدان المتقدمة في العالم . وفي مجرى الثورة الثقافية احتوت التقاليد والاشكال القديمة للثقافة القومية على مضمون فكري جديد اشتراكي . لهذا فاننا نسمي الثقافة المعاصرة في آسيا الوسطى ثقافة قومية من حيث الشكل واشتراكية من حيث المضمون.

خاتمة

ان التجربة التاريخية لشعوب آسيا الوسطى ، التي انتقلت الى الاشتراكية مجتنبة مرحلة التطور الرأسمالية المضنية هي بمثابة تأكيد ساطع على ما يقوله برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي:

«الاشتراكية هي طريق الشعوب نحو الحرية والسعادة. انها تضمن السرعة في انهاض الاقتصاد والثقافة . وهي تحول البلد المتأخر الى بلد صناعي لا في غضون قرون بل في حياة جيل واحد. فالاقتصاد الاشتراكي المنهاجي هو من حيث طبيعته اقتصاد النهوض والازدهار. والقضاء على استثمار الانسان للانسان يضع حدا لعدم المساواة الاجتماعية . وتنعدم البطالة بصورة تامة . ان الاشتراكية تضمن الارض لجميع الفلاحين وتساعدهم في تطوير الاقتصاد ، وتوحد على اساس الطوعية عملهم في

تعاونيات وتضع تحت تصرفهم التكنيك الزراعي الحديث والعلم الزراعي الراقي . ويصبح عمل الفلاحين اكبر مردودا وتعطي الارض مزيدا من الثمرات . وتضمن الاشتراكية للطبقة العاملة ولجميع الكادحين مستوى حياة مرتفع من الناحيتين المادية والثقافية . وتخرج الاشتراكية الجماهير الشعبية من الظلمات والجهالة الى حضارة العصر . وتنفتح امام المثقفين آفاق رحبة للابداع في خير الشعب »* .

ان تجربة الجمهوريات السوفييتية في آسيا الوسطى تبين ان الاشتراكية وحدها هي القادرة على وضع حد للاستثمار ، والقضاء على بؤس الجماهير الشعبية في البلدان الضعيفة التطور اقتصاديا ، وضمان التطور المنهاجي المستمر للاقتصاد والارتفاع الدائم لمستوى حياة الشعب.

ان تجربة آسيا الوسطى تبين ان مفتاح بناء المجتمع الاشتراكي في البلدان التي لم تمر في مرحلة التطور

* «برنامج الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي». الطبعة العربية، موسكو، عام ١٩٦١، ص٦٠.

الرأسمالية هو ، اولا ، انشاء الصناعة والطبقة العاملة الاهلية، وثانيا ، تعزيز تحالفها الى اقصى حد مع الفلاحين الذين يؤلفون السواد الاعظم من السكان . ولقد وجه الحزب الشيوعي جهوده الرئيسية للعمل بين الفلاحين الكادحين ، اذ مارس نشاطه في ظروف كانت الطبقة العاملة فيها في البداية تؤلف الاقلية الضئيلة من سكان آسيا الوسطى . والتجربة تبين ان عمل المنظمات الحزبية في آسيا الوسطى كان مثمرا وناجحا فقط ، شريطة المحافظة على اتصال دائم بالفلاحين المحليين . وقد تجاوب الحزب بدقة مع مزاج الفلاحين ، وراعى مصالحهم بصورة شاملة ، وكان دائما على استعداد للقيام بتنازلات معينة للفلاحين من اجل الانتصار النهائي للاشتراكية . وبالعكس ، فانه لم يكن ثمة شيء اخطر من الاخطاء « اليسارية » ، وذلك عندما كانت بعض المنظمات الحزبية تنسى الفلاحين وتنفصل عنهم.

ان تجربة آسيا الوسطى تبين انه من الهام في البلدان الضعيفة التطور اقتصاديا ، حيث البروليتاريا القليلة

العدد والفلاحون البطريركيون المتأخرون، التوصل الى توحيد جميع القوى التقدمية، ومن ضمنها فئات معينة من البرجوازية الوطنية ، لا سيما الصغيرة . ان على الحزب الماركسي في هذه الظروف ان ينتهج سياسة مرنة ، وان يكون قادرا على الوصول الى اتفاق مع البرجوازية الوطنية ، غير متراجع عن المبادئ الاساسية في الماركسية ـ اللينينية ، وبالاحرى دون ان يجد نفسه مقادا من قبل البرجوازية الوطنية ، كما حدث ، مثلا ، في خوارزم عام ١٩٢٠ .

ان تجربة آسيا الوسطى تبين ان الشرط الضروري لبناء الاشتراكية هو صداقة شعوب البلدان الضعيفة التطور اقتصاديا مع الجمهوريات الاشتراكية المتقدمة . ان المساعدة الاخوية الاشتراكية المتبادلة هي رافعة جبارة يمكنها رفع اقتصاد وثقافة الشعوب المظلومة فيما مضى باسرع وقت ، كما جرى في آسيا الوسطى ، وفي الوقت نفسه ، من الضروري التغلب الحازم على كل عراك بين القبائل يظهر من كل بد في المراحل الاولى من البناء الاشتراكي في ظروف مشابهة . ان الصداقة

بين الشعوب والوحدة الداخلية لكل شعب تتعززان على الدوام في مجرى بناء الاشتراكية والتطور اللاحق للمجتمع الاشتراكي.

ان تجربة آسيا الوسطى ، شأنها شأن تجربة الاتحاد السوفييتي بأسره ، تبين ان الاداة الاساسية لتحويل المجتمع تحويلا اشتراكيا هي الدولة الاشتراكية. وبهذه المناسبة ، وانطلاقا من تجربة آسيا الوسطى ، تمكن الاشارة الى انه في بعض الحالات في المراحل الاولى من النضال في سبيل طريق التطور الاشتراكي (قبل تحقيق التصنيع الاشتراكي) ، فان هذه الدولة قد لا تتسم بطابع ديكتاتورية البروليتاريا ، وانما تقوم على كتلة الفلاحين الثوريين ، والفئة التقدمية من البرجوازية الوطنية ، والعمال القليلي العدد تحت قيادة الحزب الشيوعي.

ان تجربة آسيا الوسطى تبين ان بناء الاشتراكية في البلدان التي لم تمر في مرحلة التطور الرأسمالية ، يتضمن جميع الحلقات الاساسية في البرنامج اللينيني لبناء المجتمع الاشتراكي — تصنيع البلاد ، إشاعة نظام التعاون في

الاقتصاد الزراعي ، الثورة الثقافية . والانتقال الى بناء الاشتراكية على نطاق واسع يتطلب في هذه الظروف عملا تمهيديا كبيرا خاصا قبل كل شيء بين الفلاحين.

ان تجربة جمهوريتي خوارزم وبخارى الشعبيتين السوفييتيتين تبين كذلك ان فترة انتقالية تلزم احيانا الشعب المتحرر ، بعد انتصار الثورة المعادية للاقطاعية والامبريالية ، وفي بعض الظروف ، من اجل ان يختار الطريق اللاحق لتطوره التاريخي. وفي غضون هذه الفترة ، على الحزب الشيوعي ، دون ان يفرض على الشعب التحولات الاشتراكية المباشرة؛ ان يقوم عن طريق النضال الدائب في سبيل السير في التحولات الثورية الديموقراطية حتى النهاية ، برص الجماهير الشعبية حوله ، وقبل كل شيء جماهير الفلاحين ، وان يوضح لهم تقدمية الاشتراكية تاريخيا وان يقودهم وراءه في الطريق الاشتراكي.

ان تجربة آسيا الوسطى، شأنها شأن تجربة الاتحاد السوفييتي بأسره ، قد اثبتت كليا ان قيادة الحزب الثوري الماركسي تلعب دورا حاسما في

تاسيس وتطوير المجتمع الاشتراكي. والشرط الضروري لانتصار الاشتراكية هو اخلاص الحزب لمبادئ الماركسية - اللينينية، لمبادئ الاممية البروليتارية وتحقيقها الحازم في الحياة .

لقد ترتب على الحزب الشيوعي ان يذود بعناد عن هذه المبادئ ضد حاملي مختلف وجهات النظر الاشتراكية البرجوازية الصغيرة. فان افكار الاشتراكية البرجوازية الصغيرة قد انتشرت في آسيا الوسطى انتشارا لا مفر منه، كما هو الامر في كل بلد ضعيف التطور اقتصاديا، حيث البرجوازية الصغيرة كثيرة العدد والبروليتاريا ضعيفة. ان هؤلاء الناس، وهم يمثلون مصالح البرجوازية الوطنية الصغيرة التي اطلقوا عليها اسم الدعامة الرئيسية للسلطة السوفييتية في آسيا الوسطى، قد حاولوا معارضة المشروع اللينيني لبناء الاشتراكية ببرنامجهم الخاص. وهذا البرنامج الذي جاء وصفه اعلاه كان يقوم: على الانطواء القومي، بدل الاممية البروليتارية؛ على صيانة الرأسمال الخاص، بدل السير في طريق توسيع وانتصار القطاع الاشتراكي؛ على

ابقاء اقتصاد الفلاحين والحرفيين الصغير والمتأخر، بدل التصنيع الاشتراكي وتحويل الاقتصاد الزراعي تحويلا اشتراكيا ؛ على ابقاء العادات القديمة ، بدل انشاء ثقافة جديدة ، اشتراكية. وبغية تحقيق هذا البرنامج ، وصل حاملو هذه الآراء وقسم من العناصر المستثمِرة التي دعمتهم ، الى حد تدبير المؤامرات وتنظيم العصيانات المسلحة ضد السلطة السوفييتية.

ولقد اصبح واضحا بصورة جيدة الآن الى ما كان سيؤدي تحقيق هذا البرنامج الذي صوروه بانه برنامج اشتراكي . فلو تحقق ، لما تسنى لشعوب آسيا الوسطى ان تظفر بانتصاراتها الهائلة في بنائها الاقتصادي والثقافي ؛ ولبقيت جمهوريات آسيا الوسطى حتما في مستوى البلدان الرأسمالية الضعيفة التطور .

ولكيما يتصور المرء بصورة دقيقة جلية مقدار عظمة افضليات طريق التطور الاشتراكي على طريق

التطور الرأسمالي، نقارن آسيا الوسطى الاشتراكية بتركيا البرجوازية الاقطاعية.

لقد كانت تركيا فيما مضى اكثر الدول المستقلة في الشرقين الادنى والاوسط قوة . وحتى عام ١٩١٧، لم تكن تركيا غير متخلفة عن آسيا الوسطى وحسب، وانما كانت من حيث عدد من الدلائل الهامة تتجاوزها الى مدى بعيد . وكانت تركيا بالنسبة لقادة البرجوازية الوطنية في آسيا الوسطى المثل الاعلى للدولة ، وقد كانوا يضربون المثل بها بالذات ، ودعوا الى تقليدها والتعلم منها. هذا هو بالذات طريق التطور الذي دعوا شعوب آسيا الوسطى للسير فيه.

منذ ذلك الحين مر بضع عشرات من السنين . فما هي اذن نتائج تطور الجمهوريات الاشتراكية في آسيا الوسطى تحت قيادة الحزب الشيوعي ، وتركيا الرأسمالية التي تقودها الاحزاب البرجوازية؟

لنقارن بعض الدلائل الهامة لتطور تركيا واوزبكستان — اكبر جمهورية من جمهوريات آسيا الوسطى.

لقد بقيت تركيا ، كما كانت ، بلدا زراعيا في الاساس. فصناعتها تعطي اكثر بقليل من عشر دخلها الوطني، اي اقل باربع مرات ونصف المرة مما يعطيه الاقتصاد الزراعي. ولا تصدر تركيا تقريبا الا المنتوجات الزراعية فقط ، وتستورد الآلات وغيرها من البضائع الصناعية.

اما اوزبكستان ، فقد تحولت بنتيجة انتصار الاشتراكية الى جمهورية صناعية زراعية، تجمع بين الصناعة القوية والاقتصاد الزراعي العالي التطور. وهي لا تصدر الى الجمهوريات الشقيقة والبلدان الاجنبية المنتوجات الزراعية وحسب، وانما تصدر كذلك آلات جمع القطن وغيرها من الآلات الزراعية، والحفارات، ومختلف الآلات الادوات والقضبان والصفائح المعدنية، وغيرها من البضائع الصناعية. وقد انتجت اوزبكستان، عام ١٩٦٢، من الطاقة الكهربائية بالنسبة للفرد من السكان قرابة سبع مرات اكثرمن تركيا. وفي عام ١٩٦٢ وحده، دخلت حيز العمل في جمهورية اوزبكستان الاشتراكية السوفييتية

٢٥ مؤسسة صناعية جديدة و٥٨ ورشة كبيرة في مصانع ومعامل اخرى قائمة . وتتطور هنا تطورا سريعا صناعة الانشاءات الميكانيكية والصناعة الكيميائية.

ولكن اوزبكستان الاشتراكية تعدت تركيا الرأسمالية شوطا بعيدا في مجال الاقتصاد الزراعي كذلك . ففي تركيا ، كانت حصة الجرار الواحد، عام ١٩٥٨ ، ٣٥٠ هكتارا من الاراضي المزروعة، اما في اوزبكستان فكانت ٥٣ هكتارا . ولهذا نسوا منذ أمد بعيد في اوزبكستان الحراثة على الحيوانات؛ اما في تركيا ، فلا تجرث الجرارات الا ١٤٪ من المساحات المفلوحة . والجرار بالنسبة لجماهير الفلاحين الاساسية في تركيا مستحيل المنال ، كما أن النفقات اللازمة لتطبيق الطرق الزراعية المتقدمة هي الاخرى مستحيلة المنال بالنسبة لها.

ان بقاء الاساليب القديمة في فلاحة الحقول ينعكس على المردود. ففي تركيا ، يبلغ مردود الهكتار من القطن من كنتالين ونصف الى ثلاثة

كنتالات ، ويبلغ في اوزبكستان من ٢٠ الى ٢١ كنتالا .

واكثر وضوحا هي الفروق في مجال التطور الثقافي . فقد صفيت الامية في اوزبكستان منذ أمد بعيد ؛ اما في تركيا ، فان الاميين اكثر من نصف السكان . وفي اوزبكستان ، طبيب لكل ٦٧٥ نسمة ؛ اما في تركيا ، فهناك طبيب واحد لكل ٣٥٠٠. ومن حيث عدد الطلبة لكل عشرة آلاف من السكان ، تتفوق اوزبكستان على تركيا باكثر من ١٦ مرة.

ان التطور الضعيف للصناعة وتخلف الاقتصاد الزراعي يؤديان الى مستوى الحياة المنخفض . ففي تركيا ، كان الدخل الوطني عام ١٩٥٩ يؤلف بالنسبة للفرد من السكان ١٥٠ دولارا اميركيا فقط ، اي اقل منه في اوزبكستان ، وفي الاتحاد السوفييتي بأسره قرابة خمس مرات ونصف المرة . هذا ، والدخل الوطني في الاتحاد السوفييتي ينمو نموا سريعا. ولا يوجد في اوزبكستان

فلاحون بلا ارض ولا عاطلون عن العمل . وتثقل كاهل تركيا ديون هائلة على الدولة — قرابة ١٠ مليارات ليرة (اكثر من مليار دولار) . وهذه النقود تنفق على التحضيرات العسكرية المضخمة بصورة بالغة ، والمرتبطة بدخول تركيا في حلف الاطلسي العدواني . ويعيش السكان في وضع شاق. فالخراب ينزل بالفلاحين الصغار ، و٥٠٠ الف عائلة لا تملك الارض . وتفيض المدن بالعاطلين عن العمل : في عام ١٩٦٢، وصل عددهم الى اربعة ملايين ، اي قرابة سبع سكان البلاد!

هذا مع العلم ان تركيا كانت ولا تزال اكثر البلاد الرأسمالية تطورا في الشرقين الادنى والاوسط! اما البلدان الاخرى — ايران وافغانستان وباكستان — فقد تخلفت عن آسيا الوسطى اكثر بكثير من تركيا. مثلا ، يؤلف الدخل الوطني في باكستان بالنسبة للفرد من السكان ٥٠ دولارا فقط، وفي افغانستان — ٤٨,١ دولارا وهكذا دواليك.

ان الطريق الرأسمالي لتطور البلدان الضعيفة

التطور اقتصاديا هو طريق آلام الشعوب . انه يؤدي الى بقاء التخلف والبؤس.. ان الطريق الاشتراكي للتطور هو وحده القادر على ضمان التقدم السريع والازدهار لهذه البلدان . هذا ما تتحدث عنه التجربة التاريخية لجمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية.

لقد وصلت جمهوريات آسيا الوسطى الى الاشتراكية مجتنبة الرأسمالية. وقد خرجت ، في فترة تاريخية قصيرة ، من ظلام العبودية الاستعمارية الى طريق الاشتراكية الوضاء ، وارتفعت الى مستوى البلدان المتقدمة ، وكدست تجربة تاريخية غنية . ان مئات الوفود من البلدان الاجنبية في آسيا وافريقيا تزور حاليا آسيا الوسطى كيما تتعرف على التجربة الملموسة لبناء الاشتراكية والشيوعية في المستعمرات السابقة المتخلفة ، وتقتنع بام اعينها بالنجاحات المذهلة التي احرزتها جمهوريات آسيا الوسطى.

فقد زار اوزبكستان وحدها، عام ١٩٦٢، ٢٨٥ وفدا من ٨٥ بلدا من بلدان العالم : وفد جمهورية

مالي الحكومي، وفود من كوبا ولاوس ويوغوسلافيا وبولونيا والهند وغيرها من البلدان . وفي نفس السنة ، عقدت نساء افريقيا اجتماعا في طشقند لتدارس امورهن ، وجرت فيها كذلك ندوة دراسية خاصة بزراعة القطن عقدت من اجل الاختصاصيين في البلدان الضعيفة التطور من الناحية الاقتصادية، وعقد ايضا عدد من الاجتماعات العالمية الاخرى.

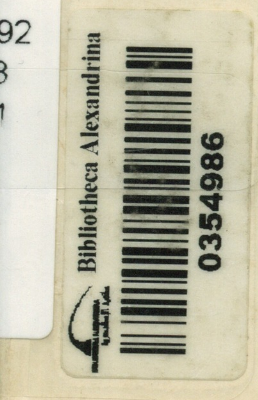
لقد غدت جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية منارة ساطعة للاشتراكية في الشرق ، واليها تتجه انظار ملايين الناس المناضلين في سبيل السلم والديموقراطية والاشتراكية. ان شغيلة آسيا الوسطى يشاطرون بارتياح تام تجربتهم في البناء الاشتراكي.

محتويات

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم
اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول
موضوع الكتاب وترجمته، وشكل عرضه،
وطباعته، واعربتم لها عن رغباتكم.

العنوان: زوبوفسكي بولفار، ٢١
موسكو– الاتحاد السوفييتي



А. Росляков, Ш. Ташлиев

ОБ ИСТОРИЧЕСКОМ ОПЫТЕ СТРОИТЕЛЬСТВА СОЦИАЛИЗМА В СОВЕТСКИХ РЕСПУБЛИКАХ СРЕДНЕЙ АЗИИ

На арабском языке